شعراء العرب في الجاهلية

بسم الله الرحمن الرحيم

شعراء العرب في الجاهلية

تأليف وإعداد
عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف :00963112248433 فاكس : 00963112248432 ص.ب : 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس : 0097165512264 ص.ب : 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

امرؤُ القيسِ
الشَّاعِرُ الطَّريدُ

الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدنا مُحمَّدٍ سَيِّدِ الأَنبياءِ والمُرسلينَ، وَبعدُ:

أَعزَّائي:

سَنَقْرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ قِصَّةَ الشَّاعِرِ المَلِكِ، الشَّاعِرِ الَّذِي تَرَبَّعَ علَى عَرشِ إِمارَةِ الشِّعر العربيِّ مُنذُ عَصْرِ الجاهليَّةِ الأُولَى، وكانَتْ لَهُ قَدَمُ السَّبقِ في نَظْمِهِ الشِّعرَ العَربِيَّ وتَشييدِ مَجدِهِ، وتَوطيدِ أَركانِهِ، بَلْ كانَتْ لَهُ اليَدُ الأُولى في جَعلِ الشِّعرِ العَربيِّ قَضيَّةَ الإِنْسانِ العَربيِّ، وَمَحَطَّ اهْتِمامِهِ وتطَلُّعَ شَغَفِهِ وهيامِهِ.

كما أَنَّ هَذا الشاعِرَ الَّذِي نَحنُ بِصَدَدِهِ، قَدْ عَكَسَ في شِعرِهِ كُلَّ مَظاهِرِ الحياةِ، وكُلَّ أَلوانِها الباهِيَةِ والصَّاخِبَةِ، نَرى في شعرِهِ عَفَويةَ الطُّفولَةِ، وعُنفوانَ الشَّبابِ، وجَديَّة الرُّجولَةِ، وَنَجِدُ الصَّخَبَ والفَرحَ واللَّهوَ والمجونَ، والسَّعادَةَ والبُؤسَ والشَّقاءَ، نَرى فيه المحبَّ الهائِمَ البَاحِثَ عَنْ صَبْوَتِهِ، ونَرى فيه الفَارِسَ المِغوارَ، الجَائِلَ في الأَماكِنِ والأَصقاعِ باحثاً عَنْ مُلكِهِ السَّليبِ.

وكُلَّما كانَ الشَّاعِرُ صاحِبَ قَضيَّةٍ، كانَ أَكْثَرَ عَطاءً ونِتاجاً، وكانَ شعرُهُ أَكثَرَ قُوَّةً وبَياناً ومَتَانَةً، وهَكَذا كانَ شاعِرُنا هَذا، صاحِبَ قَضيَّةٍ أَعطاها مِنْ نَفسِهِ ومِنْ شعرِهِ كُلَّ اهتمامٍ حَتَّى اللَّحظَةِ الأَخيرةِ مِنْ حياتِهِ، أَضناهُ البَحثُ الطَّويلُ عَنِ المُلْك السَّليبِ الَّذِي سُلِبَ فِيْه، وضاعَ في خِضمِّ الصِّراعاتِ السِّياسيَّةِ والإِقليميَّةِ الَّتِي طَغَتْ عَلَى مَسرحِ الأَحداثِ في حياةِ العَربِ في الجزيرَةِ العَربيَّةِ آنَذاكَ.

فَقَضَى الشَّاعِرُ حياتَهُ بَعدَ موتِ أَبيهِ في حلٍّ وتَرحالٍ وفي سَفَرٍ وحُروبٍ وهروبٍ، وتَوارى عَنِ الأَنظارِ في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ بِسَببِ مُطارَدَةِ الملوكِ والحُكَّامِ لَهُ، وخِلالَ كُلِّ ذَلِكَ صَدَحَتْ مُخيلتُهُ وقريحَتُهُ الشِّعريَّةُ بِأَجمَلِ الأَشعارِ والقصائِدِ الَّتِي خَلَّدَتْهُ كَشاعِرٍ مَجيدٍ.

فإِذا ذُكِرَ الشِّعْرِ العَربيُّ أو شُعراؤهُ في مَقامٍ، فَلابُدَّ أَنْ يُذكَرَ أَميرُ الشِّعرِ والشُّعراءِ مُنْذُ الجاهِليَّةِ: امرؤُ القيسِ، هَذا الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْ شِعرِهِ الأولونَ والأَقدمونَ، وسارَتْ بِشِعرِهِ الرُّكبان، حَتَّى وَصَل صِيتُهُ وشعرهُ إلى بِلادِ الرُّومانِ في ذَلِكَ القَصْرِ، وعُرِفَ عِندَ الرُّومانِ بِـ «قيسِ العَربِ»، وهُمْ يَقصدونَ بِذَلِكَ شاعِرِ العَرب، أو الشَّاعِرَ العَربيَّ.

فَتعالَوا مَعاً، لِنقرأَ في هَذهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ، سُطوراً في حياةِ هَذا الشَّاعِرِ الخالِدِ.

ما مِنْ شاعرٍ عربيٍّ ـ قَديماً وحَديثاً ـ جَمعَ بينَ شَرفِ السُّؤدُدِ وكَرامَةِ النَّسَبِ، وإِمارةِ الشِّعرِ، كَامرئ القَيسِ، فهو يَرجعُ نَسبُه إِلى حِجْرِ بْنِ عمرو الكنديِّ، وأَصلُهُ إِلى بَني كِنْدَة مِنْ عَرَبِ الجنوبِ، فَهو الأَميرُ الشَّاعرُ، وحَفيدُ الملوكِ، وَرِثَ العِزَّ والسُّؤدُدَ كما وَرِثَ

المُلكَ، ولآبائِهِ وأَجدادِهِ قِصَّةٌ في تاريخِ العَربِ القديمِ في الجزيرةِ العربيَّةِ، وقد لَعِبوا دَوراً بارِزاً في إِرساءِ معالِجِ الحياةِ السِّياسيَّةِ لِلعربِ قَديماً.

فَفي مطلَعِ القرنِ الخامسِ الميلاديِّ، كانَ هُناكَ قوتان عظيمتانِ تَتَنافَسانِ عَلى السَّيطرَةِ على العالَمِ القديمِ ولاسِيَّما بلادِ العَربِ ومَدِّ نفوذِهِما فيه آنَذاكَ وهما: الدَّولَةُ الفَارِسيَّةُ، والدَّولة البِيزنطِيَّةُ.

وعِنْدَما انْتَصفَ القَرنُ الخَامِسُ الميلاديُّ، قَامتْ في بلادِ اليمنِ مَملكَةٌ عربيَّةٌ عظيمَةٌ مَدَّتْ نفوذَها إلى قَلْبِ الجزيرةِ العَربيَّةِ وهي مملكةُ المتابِعَةِ مُلوك «حِمْيَرَ».

وعِنْدَما اتَّسَعَتْ رقعَةُ هَذِهِ المَملكَةِ في عَهدِ الملكِ «حَسَّانَ بنِ تُبَّعٍ» عَيَّنَ «حِجْرَ بْنَ عمرو الكنديَّ» المُلَقَّبَ بـ «آكِلِ المرارِ» ملِكاً على دَولَةِ نَجدٍ الَّتِي كانَتْ تُسَمَّى حينَها «مَملكة كندةَ». وحِجْرُ هَذا، هُوَ الجَدُّ الأَكْبرُ لامرئِ القيسِ، وفي عَهدِ الحارِثِ حَفيدِ حِجْرٍ قَوِيَتْ مملكَةُ كِنْدَةَ، واتَّسَعَتْ حُدودُها، وقَامَتْ بينَها وبينَ «قبَّاذَ» ملكِ الفُرسِ علاقَةٌ حَميمةٌ كانَتْ نَتيجتُها أَنْ ساعَدَ مَلِكُ الفُرسِ «قُبَّاذُ» «الحارثَ» مَلِكَ كِندةَ في الاستيلاءِ على مُلْكِ «المُنذِرِ بْنِ ماءِ السَّماءِ» في الحيرةِ، وإِنْهاءِ نُفوذِ دَولتِهِ العربيَّة اللُّخمِيَّةِ، فَعَظُمَ شَأْنُ «الحارِثِ» مَلِكِ كندةَ، وتَوافَدَتْ إِليهِ القَبائِلُ العَربيَّةُ تَخطُبُ ودَّهُ وتَجعَلُ أَمرَ قيادَتِها بين يَديهِ، فَوَلَّى «الحارِثُ» ابْنَهُ «حِجْراً» أَبا «امرئِ القيسِ» مَلِكاً على بَني أَسدَ وغطفانَ، وابْنَهُ «شَرحبيلَ بْنَ الحارِثِ» على قبيلَة بَكرِ بْنِ وائلٍ، وابْنَهُ «مَعدي يكربَ بنَ الحارِثِ» عَلى قَبيلَةِ قيس وكِنانَةَ، وابْنَهُ «سَلَمَةَ بنَ الحارثِ» مَلِكاً على قبيلَتي تَغلب وقبيلةِ النِّمرِ بْنِ

قاسِط، وهَكَذا أَصبَحَ أَبْناءُ «الحارِثِ» مَلكِ كِندَةَ ـ وهو الجَدُّ الأَصغَرُ لامرئِ القيسِ ـ ملوكاً عَلَى العَربِ في كافَّةِ أَنْحاءِ الجزيرةِ العَربيَّة وبَعضِ مناطِقِ بِلاد العراقِ.

وفي كنفِ أبيهِ «حِجْرِ بْنِ الحارثِ» ـ الَّذِي كانَ مَلِكاً عَلَى بني أَسدٍ وغطفانَ، ووَرِثَ المُلكَ على مملكَةِ كِنْدَةَ بَعْدَ موتِ أبيهِ «الحارِثِ» ـ وُلِدَ امرؤُ القَيسِ.

في نحوِ سَنَةِ (500) ميلاديَّة، ولِدَ الشَّاعِرُ امرؤُ القَيسِ في نَجدٍ، وعَاشَ مُنذُ صِغَرِهِ عيشَةَ أَبْناءِ الملوكِ، تَزخَرُ حياتُهُ بِالنَّعيم واللَّهوِ والتَّرَفِ والمجُونِ، وتَمَكَّنَتْ فيْهِ حَياةُ الهَوى والعَبَثِ واللَّامبالاةِ.

عَشِقَ امرؤُ القَيسِ مُنْذُ صِباهُ الأَوَّلِ، اللَّعِبَ والصَّيْدَ والمُغامراتِ الغَراميَّةَ، كَما عَشِقَ قَرضَ الشِّعرِ، لأَنَّهُ كانَ ميَّالاً بِطَبعِهِ إِلى قَولِ الشِّعرِ، والتَّغَزُّلِ بِالنِّساءِ، ومَدحِ حَياةِ اللَّهوِ والشَّبابِ ومُنادَمَةِ الخَمرِ مَعَ أَتْرابِهِ وخُلَّانِهِ، وَوَصفِ حياةِ المُجونِ والعَبَثِ.

ولَعَلَّ هَذا الأمرَ قَدْ أَزعجَ أَباه «حِجْراً»، فَرَدَعَهُ عَنْ حياةِ المجونِ، وعَنْ قَولِ الشِّعرِ بَعْدَ أَنْ بلَغَهُ بَعضاً مِنْ أشعارِهِ الَّتِي يَتَغزَّلُ فيها بِإحدَى النِّساءِ، لأَنَّ ذَلِكَ لا يَليقُ بِأبْناءِ الملوكِ، ولا سِيَّما أَنَّ امرئَ القَيسِ كانَ الابْنَ البِكرَ لأَبيهِ، وسَيرثُ مِنْهُ المُلكَ.

لكنَّ امرأَ القَيسِ لَمْ يُلقِ بالاً لأوامرِ أبيهِ وَنَصائِحه، واستمرَّ غارِقاً في حياةِ التَّرفِ واللَّهوِ، وقَوْلِ الشِّعرِ والتَّشبُّبِ بِالنِّساءِ فَطَردَهُ أَبوهُ مِنْ كَنَفِهِ، فَعاشَ الأَميرُ الشَّاعِرُ الطَّريدُ مُتَنَقِّلاً مِنْ حيٍّ إِلى حَيٍّ، ومِنْ مَكانٍ إِلى آخرَ، وقَدِ التَفَّ حولَهُ بَعضُ الشُّبانِ مِنَ القَبائِلِ العَربِيَّةِ مِمَّنْ يَنشدونَ حياةَ الصَّيدِ واللَّهوِ والمُجونِ والشَّرابِ، وهَكَذا أَصبَحَ امرؤُ القيس

يَقضي حياتَهُ بينَ هَؤلاءِ الشُّبَّانِ، عَلَى ضِفافِ الغُدرانِ وفي أَكنافِ الرِّياضِ، بَينَ قَرضِ الشِّعرِ وعَزفِ القِيَانِ، وقَدْ أَكسَبَتْهُ هَذهِ الطَّريقَةُ في العَيشِ مُخيلةً واسِعَةً، وصوراً رائِعَةً عَنِ الطَّبيعَةِ والجَمالِ، فَراحَ يَعْكِسُ كُلَّ ذَلِكَ في شِعرِهِ مُضفِياً عَليهِ رِقَّةَ الشُّعورِ، وحَنينَ العاطِفَةِ وعَبقريَة الإلهامِ، فاكْتَسَى شعرُهُ مِنَ الطَّبيعَةِ أَدَقَّ المعاني، وأَروعَ الصُّوَرِ وأَوسَعها نِطاقاً في التَّشبيهِ والتَّمثيلِ.

ولِنَسْتَمِعْ إِليهِ وهُوَ في إحدى اللَّيالي، يَصِفُ لَيْلاً يَمُرُّ عليهِ، مُثْقَلاً بِالهُمومِ والمَتَاعبِ والأحزانِ، فيصِفُهُ مُضفياً عليهِ صُوراً مِنَ الطَّبيعَةِ ومِنْ جَبَروتِها وعُنفوانِها. وقَدْ قامَ بَيْنَهُ وبينَها حِواراً بثَّ مِنْ خلالِهِ حُزنَهُ ورَجاءَهُ بِأسلوبٍ شعريٍّ يَقومُ على الفَلسفَةِ والتَّأمُّل في الطَّبيعَةِ والحياةِ والإِنْسانِ، فيقولُ:

ولَيلٍ كَموجِ البَحرِ أَرخَى سدولَهُ[1] عليَّ بأَنواعِ الهُمومِ ليبتَلي[2]
فَقلتُ لَهُ لَمَّا تَمطَّى بِصُلْبِهِ[3] وأَردَفَ أَعجازاً[4] وناءَ بكَلْكَلِ:[5]
أَلا أَيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلي بِصُبْحٍ وما الإِصْباحُ فيْكَ بِأمثَلِ

---

(1) سدوله: أستاره.
(2) ليبتَلي: ليمتحنني ويختبر صبري.
(3) تمطّى بصلبه: تمدَّد ظهره.
(4) أردف أعجازاً: أتبع بتمدُّد مُؤخرتِهِ، وهو هنا يشبه الليلَ بالإنسان أو الحيوان عندما يتأهب ويستعد لأمرٍ جلل.
(5) بكلكل: بصدره، الكلكل هو الصّدر.

ومِنْ هُنا تربَّعَ امرؤُ القيسِ زعامةَ الشِّعر العَربيِّ، لأَنَّهُ شاعِرُ الطَّبيعَةِ بِكُلِّ مَظاهِرِها وأَلوانِها، فَقَدْ تَأَمَّلَها كثيراً ووَقَفَ على أَخفَى خطوطِها، ورَأى ما عَظُمَ فيها وما دَقَّ سَواءٌ الطَّبيعَة الحَيَّة الناطِقة في أَوصافِ الحيوانِ المختلفةِ أو الطَّبيعَةَ الصَّامتةَ مِنْ ليلٍ وغيثٍ وبَرقٍ، وما إِلى ذَلكَ. وقَدْ حَذَا الشُّعراءُ الأَقدمونَ حَذوَهُ، وتَرسَّموا خُطاهُ في وَصفِهِ للطَّبيعَةِ وما فيها.

وَيدورُ الفلكُ، وتمضي الأَيَّامُ بِما تَمضي، وامرؤُ القيسِ يقضي حَياته كما تَعوَّدَ فيها، لاهياً ماجِناً مَعَ خلَّانِهِ وأترابِهِ، هائماً بِشعرِهِ مَعَ الطَّبيعة ومولَعاً بِها أَشَدَّ الولَعِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لِما يدورُ حولَهُ مِنْ أَحْداثٍ، غَيرَ عابِئٍ بِحياةِ الإمارَةِ والمُلْكِ، لا يَعنيهِ مِنْ أَمرِ السِّياسَةِ والحُكْم شيئاً، حتَّى جاءَ اليَومُ الَّذِي حَمَلَتْ لَهُ فيهِ الرِّياحُ غيومَ الهُمومِ والأَحزانِ.

كان ذَلِكَ إِثْرَ سُقوطِ مَملكَةِ كِنْدةَ، وزَوالِ مُلْكِ أبيهِ وأَعمامِهِ على يَدِ اللُّخميِّين، ومَقْتَلِ أَبيهِ وجَميعِ أَعمامِهِ، فَقَدْ حَدَثَ أَنْ أَصْبَحَ الكِسرى «أنوشروان» ملكاً على بِلادِ فارس بَعْدَ مَوتِ الملك «قبَّاذ» فَأَعانَ «المُنذرَ بْنَ ماءِ السَّماءِ» على استرجاعِ مُلكِهِ مِنْ يَدِ مُلوكِ «كِندةَ» والقَضاءِ عليهم جَميعاً، فهبَّ «حِجْرُ بْنُ الحارث» والِدُ امرئِ القيسِ لاسْترجاعِ مُلكِهِ واسْتَعانَ بِقومِهِ بَني أَسَد بنِ غطفانَ الَّذِينَ كانَ مَلِكاً عليهِمْ، ولكنَّهُمْ تنكَّروا لَهُ، وقَتَلوهُ، وعِنْدما وَصَل إِلى امرئ القيسِ خبرُ مقتل أبيه، قالَ مقالَتَهُ الشَّهيرةَ:

«ضَيَّعني أَبي صغيراً، وحَمَّلني دَمَهُ كبيراً، لا صَحْوَ اليومَ، ولا سُكْرَ غداً، اليوم خَمْرٌ، وغداً أَمرٌ».

فَودَّعَ امرؤُ القيسِ حياةَ اللَّهوِ والتَّرفِ، وهَبَّ لاسْتِرجاعِ المُلْكِ وكَأَنَّ خَبرَ مقتَلِ أَبيهِ

تَرَكَ في نَفسِهِ أثراً عميقاً، وفاجعةً تُهدِّدُ حياتَهُ ومُستقبلَهُ، واسْتَعانَ بِقبائِلِ تَغلب وبكرٍ وبِمَن التَفَّ حَولَهُ وقتَها مِنَ الشُّبانِ الَّذِين كانوا ينادمونَهُ في حياةِ التَّرفِ واللَّهو، ولكِنْ سُرعانَ ما انفضَّ من حولِهِ أَنصارُهُ، وبَقيَ وحيداً شريداً مع ابنَةٍ لَهُ، يتقلَّبُ في البِلادِ مِنْ حيٍّ إلى حيٍّ ومِنْ أميرٍ إلى آخرَ، وجُنودُ وعيونُ مَلك الحيرة «المُنْذرِ بنِ ماءِ السَّماءِ» تلاحِقُهُ وتُطارِدُهُ أينَما حَلَّ أو ارتَحلَ، فَلَجأَ أَخيراً إلى مَلِكِ الغَساسِنَةِ في الشَّامِ، فَمهَّدَ لَهُ هَذا الأَخيرُ سَبيلَ السَّفَرِ إلى عاصِمَةِ الإمبراطورية الرُّومانيَّةِ «القسطنطينيَّةِ» ليُقابلَ فيها مَلِكَ الرُّومِ «القيصرَ» ويطلبُ فيهِ مَعونَتَهُ عَلى أعدائِهِ.

وعَلَى الرَّغمِ مِنِ احتفاءِ القَيْصَرِ بالشاعِرِ امرئِ القيسِ، وإِحسانِ وفادَتِهِ إليه، إلَّا أَنَّ محاولاتِ القَيصرِ وجهودَهُ لَمْ تُسْفِرْ عَلى أَرض الواقِعِ بأيِّ شَيءٍ، فَباءَتْ مَساعي امرئِ القيس بِالفَشَلِ. فَعادَ امرؤُ القيس مِنْ عاصمةِ الرُّومِ وقَدْ مَلأَ قَلبَهُ اليَأْسُ والقَنوطُ، وتَقَطَّعَتْ في نَفسِهِ كُلُّ خُيوطِ الأَمل في استرجاعِ مُلكِهِ الضَّائِعِ.

وفي طريقِ عودتِهِ عندما بَلغَ مدينَةَ «أنقرةَ» ـ وهي عاصمةُ تُركيا اليومَ ـ تَفَشَّى في جَسدِهِ مَرَضُ «الجدري» الَّذِي أَودَى بِحياتِهِ بَعْدَ أن سَبَّبَ في جَسدِهِ قروحاً عَجزَ الأَطبَّاءُ عَنْ مُداواتِها، فماتَ سَنَةَ (540) ميلاديةً، ولِذا سُمِّيَ «ذا القُروح».

ولكنْ، ما فات امرؤُ القيسِ من مُلكِهِ بِسَيفِهِ، لم يَفتْهُ بِقَلَمِهِ، فَقَدْ بَنَى بِالشِّعر مُلْكاً خالِداً لَمْ يَزلْ ماثِلاً إلى يومنا هَذا، إذ هو أَميرُ الشِّعرِ العربيِّ بلا مُنافسٍ أَو مُنازعٍ، وقَدْ خَضَعَ لِسُلطانِهِ كُلُّ شاعِرٍ، وكُلُّ ناظِمِ شعر في الماضي والحاضِرِ، وصارتْ لَهُ شهرةٌ

واسعةٌ لَمْ تَتغلَّبْ عليها الأَيَّامُ والأَحوالُ، واجتازَتْ شُهرتُهُ العُصورَ كَما اجتازَتِ الحدود، وانْتَقَلَتْ أَشعارُهُ مِنَ اللُّغَةِ العَربيَّةِ إِلى لُغاتٍ أجنبيَّةٍ شَتَّى، وقَدْ وَرَدَتْ أَخبارُهُ وبَعضُ أشعارِهِ عِنْدَ غيرِ العَرب، كمُؤَرخِي الرُّوم قديماً، الَّذِينَ أَورَدوا خَبَرَ رحلتِهِ إِلى عاصمةِ إِمبراطوريَّتِهِمْ «القسطنطينيَّة» وسَمَّوهُ «قيساً».

لَقَدْ تَرقرَقَ الشِّعْرُ مِنْ قَلبِ امرئِ القيسِ كَما يَتَرقْرَقُ مِنْ ينبوعِهِ الماءُ العَذبُ الزُّلالُ، راوياً الأسماعَ والعقولَ العَطشى إِلى الكلِمَةِ الَّتِي تحملُ في طيَّاتِها رِقَّةُ العاطِفَةِ وجَمالَ الإِحساسِ، وروعَةَ الصُّورةِ في التَّشبيهِ المَأْخوذِ مِنْ بَهاءِ الطَّبيعَةِ، كُلُّ ذَلِكَ بِتعابيرَ وأَلفاظٍ تَتَجلَّى فيها دِقَّةُ المَعنى، وسُهولَةُ الانْسيابِ في الأسماعِ والعقولِ، فَهوَ أَوَّلُ الشُّعراءِ العَرب الَّذِينَ أَغْنَوا الشِّعرَ العَربيَّ بِصوَرِ الطَّبيعَةِ ومظاهِرِها، والصحراءِ وحيواناتِها، وبِالمعاني الَّتِي تُعرضُ على النُّفوسِ والقلوبِ مِنْ حُزْنٍ وفَرحٍ وشَكوى وإِلهامٍ وضَجرٍ وسُرورٍ، فَبقيَ شعرُهُ مائِدَةً حافلَةً بِأَلذِّ المعاني والصُّوَرِ لِمَنْ أَتَى بَعدَهُ.

ولَعلَّ مِنْ أَشْهرِ شِعرِهِ الَّذِي جَمَعَهُ لَنا الرُّواةُ مُعَلَّقَتُهُ الشَّهيرةُ الَّتِي مَطلَعُها «قِفا نَبكِ»، وهي عِنْدَ العَربِ قديماً عُنوانُ الإبداعِ والجَمالِ وصدقُ العاطفةِ الإنسانيَّةِ، وفيها مِنْ نَجْوى الوجدان ما يهزُّ كُلُّ إِنْسانٍ في كُلِّ قصرٍ وعَصرٍ، حتَّى قالَ فيها بَعضُ النُّقادِ المُعاصرينَ: «قِفا نبكي أَعْظَمُ صيحةٍ للحُبِّ في وَجْهِ الفَناءِ».

كما كانَ العَربُ القُدماءُ يتَّخذونَها أنموذَجاً صادِقاً لقياسِ أَصالَةِ الشِّعرِ وجَذالَتِهِ، فَكانوا يقولونَ: «أشهرُ مِنْ (قِفا نَبكي)، وأَجملُ مِنْ (قِفا نبكي)».

قِفا نَبْكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومَنزلِ بِسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فَحومَلِ[1]

وإنَّ شفائي عِبرَةٌ مُهراقَةٌ وهَلْ عِنْدَ رَسمِ دارسٍ[2] مِنْ مُعَوَّلِ

وكَذلِكَ مِن أَشْهرِ أشعارِهِ لاميَّتُه الَّتِي مَطلَعُها:

أَلا عِمْ صَباحاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالي وهَلْ يعمنَ مَنْ كانَ في القصر الخالي

ثُمَّ بائِيَّتُه الَّتِي في مَطلَعِها يَبُثُّ شَوقَهُ وحَنينَهُ إِلى زَوجتِهِ «أُمِّ جُنْدبٍ»:

خَليليَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُندُبِ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ

ومِنْ قصيدةٍ لهُ في رِثاءِ مُلكِهِ الضَّائِع يقولُ:

وَقَدْ طَوَّفْتُ بالآفاقِ حَتَّى رَضيتُ مِنَ الغَنيمَةِ بِالإيابِ

أَبَعْدَ الحارِثِ المَلِكِ ابْنِ عَمْرٍو وبَعْدَ الخَيرِ حِجْرٍ ذي القِبابِ

أُرَجي مِنْ صُروفِ الدَّهرِ لِيناً ولَمْ تَغفَلْ عَنِ الصُّمِّ الهِضابِ

وهو يَعني بِهذا: أَنَّهُ أَكثرَ مِنَ الطَّواف في البلادِ والأصقاعِ فَلَمْ يَرَ خيراً مِنَ الرُّجوعِ إِلى أهلِهِ وَوَطنِهِ.

وهكذا، كانَ شِعرُ امرئِ القيس صورةً صادقةً عَنْ كُلِّ مراحِلِ حياتِهِ بِأفراحِها وأتراحِها وأحزانِها.

---

(1) سقط اللوى، الدخول، حومل: أسماء أماكن.

(2) رسم دارس: معالمُ مُمحاةٌ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا ينتُجُ عَنْ كونِ الشَّاعِرِ صاحبَ قضيَّةٍ؟

2 ـ كيف قَضى امرؤُ القيسِ حياتَهُ بعدَ موتِ أبيه، ولِماذا؟

3 ـ إِلى مَنْ يرجعُ أصلُ امرئِ القيسِ ونَسبُهُ؟

4 ـ ماذا نتَجَ عنِ العلاقةِ الحَميميةِ بينَ الحارثِ وقُبَّاذ ملكِ الفُرسِ؟

5 ـ كيفَ عاشَ امرؤُ القيسِ في صِغَرِهِ؟

6 ـ لماذا طُرِدَ امرؤُ القَيسِ مِنْ كنفِ أبيه؟

7 ـ لِماذا تَربَّعَ امرؤُ القيسِ على عرشِ زعامَةِ الشِّعرِ العَربيِّ؟

8 ـ كيف كانتِ العَربُ تَنْظُر إِلى مُعلَّقَةِ «قِفا نَبك»؟

طَرفَةُ بْنُ العَبدِ
الشَّاعِرُ القَتيلُ
(543 ـ 569م)

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ سَيِّدِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وبَعْدُ،

أعزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذهِ الصَّفحاتِ سُطوراً مِنْ حياةِ شاعرٍ عَربيٍّ كريمٍ مِنْ شُعراءِ الجاهليَّةِ، ومِنْ أَصحابِ المعلَّقاتِ السَّبع.

إذاً، فَهوَ مِنْ فَطاحِلَةِ شُعراءِ العَربِ قَديماً، ومِنْ أَجْذَلِهِمْ شِعراً، يَأتي في المَرتبَةِ الثَّانيَةِ بَعْدَ امرئِ القَيسِ، ولَقَدْ عانَى شاعِرُنا هذا كثيراً مِنَ الحياةِ المريرةِ الَّتِي عاشَها مُنذُ صِغَرِهِ، فَقَدْ ذَاقَ مرارَةَ اليُتْمِ وهو لَمْ يَزَلْ حَدَثاً لَمْ يَشُبَّ عَلَى الطَّوقِ بَعْدُ، كما عانَى مِنَ الحِرمانِ، ومِنْ ثُمَّ كابَدَ الشَّقَاءَ، وهُوَ غَريبٌ عَنْ مَوطِنِهِ وديارِهِ، وذاقَ لَوعةَ الغُربَةِ وهُوَ يَجوبُ البِلادَ، ويَهيمُ في الأَصقاعِ، ولا أنيسَ لَهُ ولا مُرافقَ لِوَحدتِهِ سِوَى شِعرِهِ وناقَتِهِ الَّتِي يركبُ عليها.

ورغمَ كُلِّ ذَلِكَ، نَرى شاعِرَنا هَذا، يَطوي الحُزنَ بينَ جَوانِحِهِ طيّاً، ولا يَدَعُ اليَأسَ والقَنوطَ يُسيطران عَلى ما يَتَدفَّقُ في شَراييِنِهِ مِنْ رُوحِ الشَّبابِ ونَزعاتِها الوَثَّابةِ نَحوَ اللَّهو والعَبَثِ والمجُونِ، ولا يُلْقِ لشَظَفِ العَيشِ وبَلوائِها بالاً، وإنَّما كانَ يَظهَرُ بَيْنَ النَّاسِ كما يَظْهَرُ السَّادَةُ والوجهاءُ مُعتزّاً بِمَكانَةِ عائِلَتِهِ ومَنزلَتِها بينَ العربِ، وبِما أورثهُ بِهِ والداهُ مِنْ مَجدٍ وسُؤْدُدٍ، وبِما تَرَكَهُ لَهُ أَبوهُ مِنْ مالٍ وجاهٍ سَطَا عليه أَقرباؤُهُ وحرموهُ مِنْهُ.

كَما كانَ هَذا الشَّاعِرُ الفَنَّانُ مُتَفَلِّتاً مِنْ عبادَةِ قَومِهِ وبِمَا يُدينونَ بِهِ مِنْ عقائِدَ وثنيَّةٍ في ذَلكَ الوَقْتِ، حُرَّ التَّفكير، يُقَدِّسُ العَقْلَ تَقديساً عظيماً، ويُؤْمِنُ بِما كَانَ يَسْتَحسِنُهُ عَقلُهُ أو يَحكُمُ بِاسْتِهجانِهِ.

إلى جانبِ ذَلِكَ كَانَ مُتَمسِّكاً أَشَدَّ التَّمسُّكِ بِالأَخلاقِ العَربيَّةِ الأَصيلةِ الَّتِي أَلِفَها الإِنْسانُ العَربيُّ في حياةِ الجاهليَّةِ مِنْ كَرَمٍ ومُروءَةٍ وشَجاعَةٍ ونَجدةٍ، ومِنْ حُبِّ الانْتِماءِ إلى الجَماعَةِ والقبيلَةِ والعَشيرَةِ والوَطَنِ، ورغمَ ما عَاناهُ مِنَ المآسي القَاسِيَةِ مِنْ قِبَلِ أَقرانِهِ وعَشيرتِهِ وأَقربائِهِ المقربينَ إليه، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَنَكَّرْ لأَصلِهِ، ولَمْ يَنسَ قَبيلَتَهُ الَّتِي تَربَّى في كَنَفِها، ولَمْ يَشُذَّ عَنِ الحياةِ الاجتماعيَّةِ الَّتِي نَشَأَ في رِحابها، أو عاشَ في ظِلِّها، فَللمجتمعِ مَكانَتُهُ الخَاصَّةُ في نفسِهِ.

ثُمَّ كانَ شاعِرُنا هَذا أَبيَّ النَّفسِ، عَزيزَ الكبرياءِ، صَريحاً فيما يَهوى أَو يَكرهُ، لا يُماري في مَواقِفِهِ، ولا يُنافِقُ في ولاءاتِهِ، مُؤمناً بسلاحِ الكَلِمَةِ، مُخلِصاً في مشاعِرِهِ، لا يُداهِنُ في شِعرِهِ أَحداً، فَكانَ يَظهَرُ في شعرِهِ بوضوحٍ ما يُكِنُّهُ في قلبِهِ مِنْ عَواطِفَ ونَزعاتٍ.

فَهَلْ عَرَفْتُمْ منْ يكونُ هَذا الشَّاعِرُ اللَّبيبُ؟

إنَّهُ طَرفةُ بْنُ العَبدِ، الشَّاعِرُ الَّذِي بَدأَ رحلَتَهُ الشِّعريَةَ في حياتِهِ باكِراً، وخَتَمها في موتِهِ وهُوَ لَمْ يَزَلْ شابّاً، ومَاتَ قَتيلاً بِالطَّريقَةِ الَّتي اختارَها وأرادَها بِنَفسِهِ.

يُنسَبُ طَرفَةُ بْنُ العَبدِ إلى قَبيلَةِ بكرِ بْنِ وائِلٍ آبائِهِ وأَجدادِهِ ثُم أَسيادِ بني ضُبْعَةَ بْنِ ربيعَة بْنِ نزارٍ. فَأَبوهُ العَبْدُ البَكريُّ، وأُمُّهُ وَرْدةُ بْنتُ عَبْدِ المسيحِ أو عَبْدِ العزَّى كما كانَ يُطْلقُ عَليه، وأَبوهُ وأُمُّهُ أولادُ عمومةٍ، ولهَذا يقالُ: إنَّهُ اجْتَمعَ بِطَرفَةَ بْنِ العَبدِ مِنْ نَسَبِهِ العالي إطارٌ مِنْ أَربابِ الشِّعرِ، فَجدُّهُ وأَبوهُ وعَمَّاهُ ـ المَرقَشانِ الأَكْبَرُ والأَصْغَرُ ـ وخَالُهُ ـ المُتَلَمِّسُ ـ كُلُّهُمْ شُعراءُ.

أَمَّا جَدُّهُ: فهو سفيانُ بنُ سعدِ بنِ مالكِ بنِ ضبيعةَ، فقد كان من شعراءِ وأسيادِ بَني ربيعةَ بْنِ نِزار. وأَمَّا أَبوهُ: فهو العَبدُ بْنُ سفيانَ، كانَ مِمَّن يَقرضُونَ الشِّعر في الجاهليَّةِ.

أَمَّا عَمَّاهُ المَرقشان الأَكْبَرُ والأَصْغَرُ: فَالأَكبَرُ كانَ عَمَّ الأَصْغَر، أَي كانَ عَمَّ والِدِ طَرفَةَ بْنِ العَبدِ، وكانَ مِنْ شُعراءِ العَرب المُقلِّينَ في الجاهليَّةِ، وأَما المَرقشُ الأَصْغَرُ، فقد كانَ أَشعرَ من عَمِّهِ المرقشِ الأَكبرِ. وكانَ جميلاً وسيماً، وهُوَ الَّذِي عَشِقَتْهُ فاطِمَةُ بنْتُ المُنذرِ مَلكِ الحيرَة.

وأَمَّا خالُهُ «المُتَلَمِّسُ»: فَكانَ مِنْ كِبارِ شُعراءِ العَربِ المُقلِّينَ أَيضاً في الجاهليَّةِ، وكانَ طَرفَةُ يُرافِقُهُ ويُنادِمُهُ ويُصاحِبُهُ في أَسفارِهِ، وقَدْ شَهِدَ المتَلمِّسُ فَضْلَ ابْنِ أَخْيهِ طَرفَةَ ورَثاهُ في شِعرِهِ.

فَطُرفَةُ إذاً، قَدْ وَرِثَ الميولَ نَحو الشِّعر وقَرضَهُ، كَما وَرِثَ الشَّرفَ والسُّؤدُدَ عَنْ آبائِهِ وأجدادِهِ.

وُلِدَ طرفَةُ بْنُ العَبدِ، سَنَةَ (543) ميلاديَّةً، في البَحرين، عَلى الخَليجِ الفَارسيِّ، حَيثُ كانَ يقطُنُ قَومُهُ، وتُقيمُ قبيلَتُهُ، ونَشَأَ وتَرعرَعَ عَلَى مَحبَّةِ الشِّعرِ، مُتَأَثِّراً بِالبيئَةِ الشِّعريَّةِ المُحيطَةِ بِهِ، وأَتْقَنَ قَرضَ الشِّعر وهو فتًى، حَيْثُ كانَ يُلازِمُ عَمَّهُ «المُرقشَ الأَصغرَ» الَّذِي كانَ شاعراً مَعروفاً حينَها.

واسْمُ «طَرْفَة» الحقيقيُّ «عَمرُو»، وقيلَ: «مَعبدُ» ولُقِّبَ بـ «طَرفَةَ» لأَنَّهُ كانَ يَأتي بِالشِّعرِ في صِغرِهِ بِأسلوبِ الطَّرافَةِ، وهَذا أَمرٌ يَنُمُّ عَنْ فِطنَةٍ وذَكاءٍ حَادَّينِ كان يَتَمتَّعُ بِهما مُنذُ صِغَرِهِ.

ويَروي لَنا «البيهقيُّ» في كتابِهِ «المحَاسِنِ والمساوئ» حِكايَةً عَنْ طرفَةَ مِنْ هَذا القَبيلِ: كانَ طرفَةُ بْنُ العَبدِ مَعَ عَمِّهِ وهُوَ صَغيرٌ في بَعضِ أَسْفارِهِ فَنَزلا عَلَى ماءٍ، فَنَصَبَ طرفَةُ فخَّهُ للقَنَابِرِ[1] وقَعَدَ لها، وهُنَّ يحذَرْنَ الفخَّ ويَنْفُرْنَ مِمَّا حَولَهُ، فَقَالَ طَرفَةُ مُنشِداً لِحالِ القَنابِرِ:

قَـاتَـلَـكُـنَّ اللهُ مِـنْ قَـنَـابِـرٍ مُـهْـتَـديـاتٍ فـي الـفَـلا نَـوافِـر

وأَخَذَ فخَّهُ ورَجَعَ إلى عَمِّهِ، فَلَمَّا تَحمَّلوا[2] أَقْبَلَتِ القَنابِرُ تَلتَقِطُ ما كانَ أَلقاهُ لَهُنَّ مِنَ الحبِّ فَالتَفَتَ فَرَآهُنَّ، فَقَالَ:

يـا لَـكِ مِـنْ قُـبَّـرَةٍ بِـمَـعْـمَـرٍ خَـلا لَـكِ الـجَـوُّ فَـبيـضي واصـفـري

---

(1) القنابر: نوع من الطيور غير الجارحة، ويطلق عليها اسم (القبَّرة).
(2) تحملوا: أرادوا الانطلاق.

ونَـقِّـري مـا شِـئْـتِ أَنْ تَـنْـقُـري قَـدْ رُفِـعَ الـفَـخُّ فَـمـاذا تَـحـذَري
لا بُـدَّ يـومـاً أَنْ تُـصـادي فَـاصْـبِـري

ما إِنْ بَلغَ «طرفَةُ» سُنَّ الرُّشدِ حَتَّى مُنيَ بِوفَاةِ أَبيهِ تارِكاً وَراءَهُ ثَروةً كَبيرةً لَمْ يَنَلْهُ مِنْها شيْئاً لا هُوَ ولا أُمُّهُ، فَقَدْ مَنَعَ أعمامُهُ الثَّروَة والتَّرِكَة عَنْهُما، وهَضَموا لهُما حَقَّيْهِما، وأَساؤوا إِلَيْهِما، فَتهدَّدَهُمْ طَرفَةُ بِقولِهِ:

مـا تَـنـظـرونَ بِـحـقٍّ وردَةَ فـيـكُـمُ صَـغُـرَ الـبَـنـونَ ورَهـطُ وَردَةَ غُـيَّـبُ
قَدْ يَدْمَثُ[1] الأَمْرَ العظيمَ صَغيرُهُ حَـتَّـى تَـظَـلُّ لَـهُ الـدِّمـاءُ تـصَّـبـبُ
والـظُّـلْـمُ فَـرَّقَ بَـيـنَ حَـيَّـيْ وائِـلٍ: بَـكـرٌ تُـسـاقِـيـهـا الـمَـنـايـا تَـغـلِـبُ

فَتنازَلَ لَهُ أَعمامُهُ عَنْ بَعضِ حُقوقِهِ، وأَعطَوهُ مِنَ المالِ الَّذِي تَركَهُ أَبوهُ بَعْدَ موتِهِ، ولكنَّ طرفَةَ لَمْ يُحسِنِ استغِلالَ المالِ بَينَ يديهِ، وإِنَّما انطَلَقَ ينفقه في المَلذَّاتِ والشَّهواتِ، وفي السُّكرِ واللَّعبِ، وأَطلَقَ حَبلَ الأَهواءِ والشَّهواتِ لِنَفسِهِ عَلَى غارِبها، غَيْرَ مُكتَرِثٍ لِضَياعِ مالِهِ، فَكان يُنفِقُ مُبذِّراً حَتَّى الإِسرافِ، وهُوَ الشَّابُّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ في مُقْتَبَلِ العُمرِ.

حاوَلَ قومُهُ نُصْحَهُ لِلْكَفِّ عَنْ حياةِ اللَّهوِ والعَبثِ وعن الإِسرافِ في تَبذير المالِ وإِنْفاقِهِ على الشَّهواتِ والشَّرابِ، لكنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِليهِمْ، ولم يَرعوِ لنصائِحهِم، فَاضْطرَّ قومُهُ إِلى طَردِهِ ونَفيهِ خَارجَ القَبيلةِ، وفي ذَلِكَ يَقولُ طَرفةُ:

ومَـا زالَ تـشـرابـي الـخُـمـور ولَـذَّتـي وبَـيْـعـي وإِنْـفـاقـي طَـريـقـي ومُـتـلَـدي

---

(1) يدمث: يسهلُ.

إلى أَنْ تَحامَتْني العشيرَةُ كُلُّها وأُفْرِدْتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وعلَى إِثْرِ ذَلِكَ راحَ «طرفةُ» عَلَى ناقَتِهِ يَضربُ في البلادِ ويَهيمُ في البَراري والجبالِ، مُتَنَقِّلاً مِنْ حَيٍّ إلى حَيٍّ، ومِنْ قومٍ إلى آخرَ، يتكسَّبُ مِنَ الصَّيدِ والغَزوِ مَعَ الغُزاةِ. وفي كَثيرٍ الأَحيانِ كانَ يَأوي إلى مغاوِرِ الجبالِ، ورغمَ هَذهِ الحياةِ المُشرَّدَةِ الَّتي عاشَها الشَّاعِرُ الشَّابُّ الطَّريدُ المُغامِرُ، فَإِنَّهُ كانَ يلْقَى الاحترامَ والتَّبجيلَ مِنَ النَّاسِ أَينَما حَلَّ أَو ارْتَحَل، وذَلكَ لِسَبَبين:

فَأَوَّلاً: لِحَسَبِهِ ونَسَبِهِ ومكانَةِ أَبيهِ بَيْنَ قَومِهِ.

وثَانياً: لِجودِهِ وكَرمِهِ وسُرعةِ نَجدتِه لِمَنْ يَطلبُهُ دونَ أَيِّ إبطاءٍ. وفي ذَلِكَ يَقولُ مُعتزّاً بِقيامِهِ بِهذا الواجبِ الاجتماعيِّ نَحوَ الآخرين:

إِذَا القَومُ قالوا: مَنْ فَتى؟ خِلْتُ أَنَّني عُنيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ ولَمْ أَتَبَلَّدِ

وكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يُقيمَ في الأَماكنِ العَاليَةِ حَتَّى يَراهُ السَّائِلُ ويَقصدُهُ القاصِدُ، ويَدعوهُ المُستَنجِدُ، قالَ مُشيراً إلى هَذا الأَمرِ:

ولَسْتُ بِحلَّالِ التِّلاعِ[1] مَخافَةً وَلكنْ مَتَى يَسْتَرفِد[2] القَومُ أَرفِدِ

بَعْدَ طُولِ مُعاناةٍ مِنَ التَّشرُّدِ وشَظَفِ العَيشِ، ضَاقَ ذَرعاً مِنْ غُربَتِهِ ومِنْ هَذه الطَّريقَةِ بِالعَيشِ والحياةِ، فَآبَ إلى رُشدِهِ، وعادَ إلى قومِهِ مُظهراً لَهُمُ اعتِذارَهُ ونَدمَهُ الشَّديدَ،

---

(1) جمع تلعة: ما اتسع من فم الوادي.

(2) يسترفد: يطلب المعونة والعطاء.

مُؤَكِّداً لَهُمْ نِيَّتَهُ عَلَى العيشِ بينَهُمْ حياةً رشيدةً حَكيمةً بَعْدَ أَنْ عَرفَ قيمَةَ الحياةِ بينَهُمْ، وعَانى مِنْ ذُلِّ التَّشردِ والغُربَةِ، وأَنْشَدَهُمْ قائِلاً:

كُنْتُ فيكُمْ كَالمُغطِّي رأسَهُ فَانْجلَى اليومَ قِناعي وخُمُرْ

فَقَبِلَهُ قَومُهُ مِنْ جَديدٍ بَينَهُمْ، فَاضطرَّتْهُ الحياةُ إلى أَنْ يَرعَى الإبْلَ لأَخِيهِ مَعْبدٍ - وهو أخوهُ لأبيه - مُقابلَ أَجرٍ يَصرفُ بِهِ على نَفسِهِ، ولكِنَّ الشَّاعر الشَّاب كَانَ يَشردُ عَنِ الإبلِ أَثناءَ رِعايَتِها بِسببِ انْشغالِهِ بِنَظْمِ الشِّعرِ والتَّفكير بِحالِهِ الَّتِي آل إليها وهُوَ الشَّابُّ الفخورُ بِنَفْسِهِ، وكانَ مِنْ نَتيجةِ ذَلِكَ أَن شَردَتْ عنْه الإبْلُ ذات يوم، وتَفَقَّدها فَلَم يَجدْها، وساءَت العَلاقَةُ بيْنَهُ وبينَ أَخيهِ، فَالتَجأَ إلى ابْنِ عَمٍّ لَهُ اسْمُهُ «مالِكٌ» وطَلَبَ مِنْهُ مُساعَدَتَهُ في رَدِّ الإبِلِ إلى أَخيهِ، ولَكِنَّ ابْنَ عَمِّهِ خَذلَهُ ولامَهُ على ما كان مِنْهُ مِنْ ضَياعِهِ لِلإبِلِ، فَتَفَتَّحتْ في قَلبِ «طرفةَ» جِراحُهُ القديمَةُ، ولامَ الزَّمانَ الَّذِي جَعَلهُ يَقَعُ تَحتَ رَحمةِ أَقربائِهِ ثانيةً، وأَنْشَدَ يقولُ:

وظُلْمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ غَضاضةً على ألمَرءِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهنَّدِ
سَتُبدي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلاً ويَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزوِّدِ

وَلكِنْ، أَنْجَدَهُ ونَصرَهُ سَيِّدان مِنْ قَومِهِ كانَ طَرفةُ قَد امتَدَحَهُما مِنْ قَبْلُ، وكَذَلِكَ لأَنَّ هَذِينِ السَّيِّدينِ قَدْ عَرفَا مُعاناةَ الشَّاعِرِ الشَّابِّ مِنْ ظُلْمِ أَقربائِهِ لَهُ وأَكلِهِمْ لحقوقِهِ.

رَدَّ «طَرفَةُ» إبْلَ أَخيهِ، وفَاضَ بينَ يَديه المالُ بِما وَهَبَهُ لَهُ السَّيدانِ، ثُمَّ راحَ يمارِسُ

طريقَةَ عَيشِهِ السَّالِفِ في اللَّهوِ والعَبثِ والشَّرابِ، مُنهَمِكاً خِلالَها بِنَظْمِ الشِّعرِ ومُنادَمَةِ الخِلَّانِ والأصدقاءِ.

بَعْدَ أَن تَركَ «طَرفَةُ» قَومَهُ ثانيةً، مسَّتْهُ الحَاجَةُ، وطَرقَ البُؤسُ حياتَهُ مِنْ جَديدٍ، فَهامَ عَلَى وَجهِهِ في البُلدانِ والأَصْقاعِ، ولكِنْ حالفَهُ الحَظُّ هَذِهِ المرَّة، حَيْثُ وَفدَ على مَلِكِ الحيرَةِ «المُنْذِرِ» عَمرو بْنِ هِندٍ، فَأَكرمَ وِفادَتَهُ وأَحْسنَ إِليهِ، ومِمَّا دَفَع «المُنذرَ» إلى إكرامِ «طَرفةَ» أَن «المُتَلَمِّسَ» خَالَ «طرفَةَ» وصهرَهُ زَوجَ أُختِهِ «عَبْد عمرو بْنَ بُشرٍ» كانا مِنْ نُدماءِ «المُنذِرِ» ومِنَ المُقرَّبينَ إِليهِ.

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يتلذَّذْ بِحياةِ الجَاهِ والنَّعيمِ طَويلاً، رُبَّما لأَن المَلِكَ «المُنْذِرَ» مِمَّنْ لا تُحمَدُ صُحبَتُهُ، ولَيسَ أهلاً للمَديح، ولمْ يَكُنْ عَلَى قدرِ المكانَةِ التي تَليقُ بِالملوكِ، ولِهذا هَجاهُ طَرفَةُ هِجاءً لاذِعاً، وقَالَ بِحقِّهِ شِعراً يَحطُّ مِنْ قَدرِهِ ـ وفي الحقيقةِ كانَ وَصفاً دقيقاً وصَحيحاً يَنْطبِقُ عَلى حَالَ المُنْذِرِ وحالِ مُلكِهِ ـ وكَانَ صِهرُ طرفَةَ «عَبْدُ عمرو بْنُ بُشرٍ» رَجُلاً أَرعنَ لا يُحسِنُ مُعاملةَ زوجتِهِ «الخرنَقِ» أُخْتِ «طرفَة»، وكَثيراً ما شَكَتِ «الخرنقُ» إلى أخيها سُوءَ معاملةِ زَوجِها، فَقالَ طَرفَةُ فيه شِعراً جاءَ فيه:

ولا خَيرَ فيهِ غَيْرَ أَنَّ لَهُ غِنًى وأَنَّ لَهُ كَشحاً[1] إذا قامَ أهضَما

وعَبْدُ عمرو بْنُ بُشرٍ كانَ رجلاً ضخماً وسَميناً فَوصَفَه طرفَةُ بِالقصرِ والضَّعفِ ونَحافَةِ الخَصرِ، حَطّاً لِقَدْرِهِ، وحَدَثَ ذاتَ يومٍ أَنْ وَقَعَ بينَ المَلِكِ المُنذرِ وعَبْدِ عمرو مُشادَّةٌ

(1) كشحاً: الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.

كَلامِيَّةٌ، فَقالَ المُنذرُ لِعَبْدِ عمرٍو: لَقَدْ صَدَقَ طَرفَةُ عِندَما قَالَ في حَقِّكَ «لا خَيرَ فيهِ»، فَانْزَعَجَ عَبْدُ عَمرٍو وقَالَ لِلمُنْذِرِ: وإِنَّهُ يقولُ فيكَ وفي أَخيكَ قابوسٍ:

فَلَيْتَ مَكانَ المَلكِ عَمرٍو رَغوثاً[1] حَولَ قُبَّتِنا تَخورُ

لَعَمرُكَ إِنَّ قابوسَ بْنَ هِنْدٍ لِتَخلِطُ مُلكَهُ نَوْكٌ[2] كَثيرُ

فَغَضِبَ المَلكُ لأنَ طَرفَةَ يُشَبِّهُهُ بِالنَّاقَةِ الَّتِي لا فائِدَةَ فيها ولها خِوارٌ، كَما يُشَبِّهُ أَخاهُ «قابوسَ» بِالرَّجلِ الأَحمقِ الَّذِي لا يَأتي بِخَيرٍ، فَكَتَبَ المُنذرُ كِتاباً لِكُلٍّ مِنَ طرفَةَ وخالِهِ المُتَلمِّسِ، وطَلَبَ مِنْهُما أَن يَحملا كتابيه إلى واليه في البَحرين، وأَوهَمَهُما أَنَّهُ أَمَرَ لَهُما بِعطاءٍ في الكِتابين، وفي الطَّريقِ فَضَّ المُتَلمِّسُ الكتابَ وإِذا فيهِ أَمرٌ بِقَتلِهِ، فَمزَّقَ الكِتابَ وأَلقَاهُ في نَهرٍ هُناكَ، وطَلبَ مِنْ طرفَةَ أَن يَفضَّ الكِتابَ لِيَجِدَ ما فيهِ، فَلَمْ يَفعلْ، وعندما وصلَ إِلى عامِلِ المنذرِ في البَحرينِ أَلقَى إليهِ الكتابَ، فإِذا فيهِ أَمرٌ بِقتلِهِ، ولكِنَّ عامِلَ المنذرِ في البَحرينِ أوعزَ إِلى طرفَةَ بالهربِ فَلَمْ يفعلْ، فَلَمْ يَجدْ عامِلُ المُنذرِ بُدّاً مِنْ قَتلِهِ وتَنْفيذِ أَمرِ المَلكِ.

وهَكذَا ماتَ «طرفَةُ» مقتولاً سَنَةَ (569) ميلاديَّةً وهُوَ لم يَزلْ في رَيعان شَبابِهِ وفي قِمَّةِ عطائِهِ الشِّعريِّ، وهُوَ دون الثلاثينَ عاماً مِنْ عُمرِهِ، وتَركَ لِلأَجيالِ الآتيَّةِ مِنْ بَعدِهِ ثَروةً عظيمةً مِنَ الشِّعر والأَدبِ، وكانَ مِنْ أَشهرِ شعرِهِ مُعلَّقَتُهُ «الدَّاليَّةُ» المُؤَلَّفَةُ مِنْ (104) أَبياتٍ

---

(1) رغوثاً: ناقة.

(2) نَوْكٌ: حمْقٌ.

تُمَثِّلُ عَبقريَةَ الشِّعرِ العربيِّ في الجاهِليَّةِ، وكثيراً ما كانَ النبيُّ الأعظمُ ﷺ يَمْتَثِلُ مِنْ شِعر طَرفَةَ البَيْتَ الَّذِي يقولُ فيه:

سَتُبْدي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهلاً ويَأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

هذا، وقَدْ رَثى المُتَلَمِّسُ ابْنَ أخيهِ الشَّاعِرَ القَتيلَ فَقالَ:

وطريفَةُ العَبديُّ كانَ هَديَهُمْ ضَربوا صميمَ قِذالِهِ[1] بِمُهَنَّدِ

وكذلِكَ رَثَتْهُ أُختُهُ «الخرنق» قائلةً:

عَدَدْنا لَهُ سِتّاً وعشرينَ حِجَّةً فَلمَّا تَوفَّاها اسْتَوى سَيِّداً ضخماً

فُجِعنا بِهِ لَمَّا رَجونا إيابَهُ عَلَى خيرِ حالٍ لا وليداً ولا قَحما[2]

(1) القذالة: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

(2) القحم: الهرم.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ بِماذا كانَ يتمسَّك طرفَةُ بْنُ العَبدِ؟

2 ـ إلى مَنْ يُنسَبُ الشَّاعِرُ طرفَةُ بْنُ العَبدِ؟

3 ـ ما اسْمُ الشَّاعِرِ الحقيقيُّ، ولِمَ سُمِّيَ طرفة؟

4 ـ كيفَ أَنفقَ طرفةُ المال الَّذِي ورثه عن أبيه؟

5 ـ لِماذا طُرِدَ طرفَةُ مِنْ قِبَل قومِهِ؟

6 ـ لِماذا كانَ يلقى طرفَةُ الاحترامَ مِنَ الآخرينَ؟

7 ـ لِماذا ساعَدَ السَّيدانِ طَرفَةَ لِرَدِّ الإبلِ إلى أخيهِ؟

8 ـ لِماذا غضبَ الملكُ مِنْ هجاءِ طرفَةَ لَهُ؟

8 ـ ماذا قَالَ طرفةُ في هِجاءِ الملكِ؟

عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ
الشَّاعرُ الواعِظُ
(. . . ـ 554م)

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا مُحمَّدٍ سَيِّدِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وبَعدُ:

أَعَزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذهِ الصَّفحاتِ اليسيرَةِ قِصَّةَ شاعِرٍ عَربيٍّ مِنَ الطَّبقَةِ الأُولى مِنْ شُعراءِ العَربِ الَّذِين اصْطَبغَ شعرُهُم بِالصِّبغةِ الملحميَّةِ والقصصيَّةِ، فشاعِرُنا قد أَحسنَ وأَجادَ في ميدانِ الشِّعرِ، وكانَ شعرُهُ فَنيّاً ووَصفياً مِنَ الدَّرجَةِ الأُولى، وهُوَ أَحَدُ الشُّعراءِ المخصوصينَ بِالمُعلَّقاتِ السَّبْعِ، أَفضلَ ما قِيل في الشِّعرِ العَربيِّ القَديمِ، ونَبْعاً ثَريّاً يَنهَلُ مِنْها الشُّعراءُ والأُدباءُ قواعِدَ الشِّعرِ ومبادِئَهُ الأَساسيَّةَ في الشَّكل والمَضمونِ.

وقَدْ أتى الشِّعرُ لِهذا الشَّاعِرِ المجيدِ ـ كَغيرِهِ مِنْ شُعراءِ العَربِ القُدامَى ـ عَلَى السَّجيَّةِ والفِطرَةِ، فَصالَ وجَالَ في ميادينِ الشِّعرِ، وتَفتَّحَتْ قريحتُهُ الشِّعريَّةُ عَنْ أَجملِ القَصائِدِ وأَجزلِها، وأَروعها وَصفاً، وأَدَقِّها تَعبيراً وتصويراً.

ولَقَدْ كانَ شعرُهُ مُحصِّلَةً لِتَجاربِهِ ومُشاهَداتِهِ، ولأَحداثِ حياتِهِ الَّتِي أَحاطَها شَيءٌ مِنَ الآلامِ والأَهوالِ وَسطَ واقعٍ لا يَرحَمُ، ولا يقطِفُ عَلَى الضَّعيفِ وتَتَحكَّمُ فيهِ القُوَّةُ والأَحقادُ، ويَقضي عَلى كُلِّ ما يَجعلُ الحياةَ خَضِرَةً حُلوةً يَحفُّها الأَمانُ والسَّلامُ.

حاوَلَ هَذا الشَّاعِرُ أَنْ يوقِدَ شَمعَةً وَسطَ ظَلامٍ دامسٍ، تَصولُ وتَجولُ فيه قوى الطُّغيانِ الَّتِي تستمِدُّ قُوَّتَها مِنْ خارجِ المجتمعِ العَربيِّ آنذاكَ، ولكنَّهُ لَمْ يَكتَمِلْ أَمامَهُ الطَّريقُ، وعَصَفَتْ بِهِ أَحقَادُ الظَّالمينَ والجبَّارينَ في الأَرضِ، وانطَفَأَ مِشعَلُ الحِكمَةِ بينَ يَديهِ في وَقتٍ أَحوج ما يكونُ إِليهِ المجتَمعُ العَربيُّ حينَها، فَقَضَى هَذا الشَّاعِرُ نَحبَهُ شهيدَ الحقِّ والكلمَةِ، وسَقَطَ وهُوَ أَعزلُ مِنَ السَّلاحِ، أَمامَ قُوَّةٍ غاشمَةٍ، لم تَجِدْ لها سَبيلاً في الأرضِ لتوطيدِ دَعائِم مُلكِها وجَبروتِها، إِلَّا اغتيالَ الحُكَماءِ، وقَتْلَ الأَبرياءِ مِنْ ذَوي الفَضلِ والكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ الَّذِينَ يُنيرونَ دُروبَ الحياة، ويُوقظونَ عُقولَ النَّاسِ لِلتَّفكُّرِ في الأرضِ والسَّماءِ، والتَّمييز بَينَ النُّورِ والظَّلامِ.

كانَ هَذا الشَّاعِرُ يتطلَّعُ للسَّماءِ قَبلَ أَن يتطلَّعَ إِلى الأَرضِ، فَيستمِدُّ فيْها قُوَّةَ الحِجَى[1] والفكر، وإِشعاعَ الكَلمَةِ، فامتدَّتْ إِليهِ يَدُ الغَدرِ الأَثيمة، واغتالَتْ حياتَهُ وتَطلُّعَهُ، فَطوِيَتْ مِنْ حياةِ الإِبداعِ والحِكمَةِ صَفحاتٌ لَمْ تكتَمِلْ بَعْدُ.

في نَظْمِ هَذا الشَّاعِرِ العَربيِّ كانَتْ تتراءَى قَبساتٌ مِنْ مَعاني السَّماءِ، وقيَمٌ مِنْ وَحي التَّوحيد، بينَما كانَتْ حَياةُ العَربيِّ غارقَةً في ضَجيجٍ عارِمٍ مِنْ تقديسِ الحجارَةِ وعبادَة

(1) الحجى: العقل.

الأوثانِ، واتِّباعِ القَويِّ المتُغطرسِ الَّذِي يُحاوِلُ محاربَةَ اللهِ في أرضِهِ، وتَحتَ قُبَّةِ سمائِهِ.

أَجَل، لَقَدْ كانَ صَوتُ هَذا الشَّاعِرِ ذَكيّاً ورَطباً بِالحكمَةِ، ومُخلِصاً في الذَّودِ عَنِ الضُّعفاءِ مِنْ أَبْناءِ قومِهِ، حاوَلَ دائماً أَنْ يرسمَ بِشعرِهِ صورَةً للحياةِ كَما يجبُ أَنْ تكونَ، وأَنْ يصرفَ اهتمامَ النَّاسِ إلى قيمِ الخلودِ، وفَهمِ الحياةِ على حَقيقَتِها كما يُريدُ الله مِنَّا أَنْ نَفْهَمَها.

ورُبَّما كان مِنَ الحُنفاءِ المُوحِّدينَ الَّذِين رفضُوا عبادَةَ الحَجَرِ والبَشَر، وحَمَلوا في قلوبِهِمْ عاطَفةً جامِحةً مُتطلِّعَة إلى اللهِ في السَّماء.

إِنَّهُ شاعِرُ الحِكمَةِ والوَعظِ والإِرشادِ، عُبيدُ بْنُ الأَبرَص. والتَّاريخُ لَمْ يروِ لَنا عَنْ ولادَةِ «عُبيدِ بْن الأبرص» شيئاً، ولا عَنْ نَشأتِهِ، وقَدِ اخْتَلَطَتْ في أَخبارِهِ الأَساطيرُ والحكاياتُ الخياليَّةُ الَّتي لا تكادُ تُصدَّقُ.

فَهو «عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ بْنِ صَنَمٍ» المُضَريُّ، وهُوَ كَما قَالَ عَنْهُ أَبو الفَرجِ الأَصفهاني: «شاعِرٌ فَحلٌ فَصيحٌ مِنْ شعراءِ الجاهليَّةِ»، وهُوَ شاعِرٌ قَديمُ الذِّكرِ، عظيمُ الشُّهرَةِ، ضاعَ الكثيرُ مِنْ شعرِهِ.

نَشَأَ وعَاشَ في مَضارِبِ قومِهِ بَني أَسدٍ، ولَمْ يَكُنْ يَقولُ الشِّعرَ، وإِنَّما أَتَاهُ الشِّعرُ في المنام بِما يُشبِهُ الوَحيَ، فَأَفاقَ مِنْ نَومِهِ وجَرى الشِّعرُ على لِسانِهِ مِنْ يومها.

ويَروي لنا ألأَصفهانيُّ عَنْ ذَلِكَ قِصَّةً طريفةً فيقولُ: «كانَ مِنْ حَديثِ عُبيدِ بْنِ الأَبرص، أَنَّهُ كانَ رَجُلاً مُحتاجاً، ولَمْ يكُنْ لَهُ ثروةٌ، فَأقبلَ ذاتَ يوم ومَعهُ أَغنامٌ لَهُ، ومَعهُ أُختُه «ماويَّةُ» ليوردا غَنَمَهُما الماءَ، فَمَنَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَني مالِكِ بْن ثَعلَبَةَ، فَانْطَلَقَ «عُبيدٌ»

مَهموماً لِلَّذي صَنَعَ بِهِ المالكيُّ، حَتَّى أَتَى شجراتٍ فاستَظَلَّ تَحتَهُنَ، فَنامَ هو وأُختُهُ، فَلمَّا أَفاقَ «عُبيدٌ» سَمِعَ المَالِكيَّ يَقذفُ في عَرضِهِ وعَرضِ أُخْتِهِ شيئاً.

فَرفَع «عبيدٌ» يَديه إِلى السَّماءِ، ثُمَّ ابْتَهَلَ، فَقالَ: «اللَّهمَّ إِنْ كانَ فُلانٌ ظَلمني، فَانْصُرني عليه»، ثمَّ اسْتَسْلَمَ للنومِ، ولَمْ يكُنْ قبلَ ذَلِكَ يقولُ الشِّعرَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ أَتاهُ مَلكٌ في المنام بكُبَّةٍ مِنْ شعرٍ، حتَّى أَلقاها في فيهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: قُمْ، فقامَ وهُوَ يَرْتجِزُ الشِّعرَ، ثُمَّ استمَرَّ بَعدَها في قولِ الشِّعرِ حتَّى صارَ شاعِرَ بَني أسدٍ وصَوتَها المُفاخِرَ، ومُحاميها المُدافِعَ».

كانَ يومَها مَلِكاً عَلى بَني أسدٍ «حِجْرُ بْنُ الحارثِ الكنديُّ» والِدُ الشَّاعِرِ امرئِ القيس؛ إِذِ اسْتَلَمَ العرشَ عُنوَةً بِمساعَدةِ كسرى مَلِكِ العَجَمِ، بَعْدَ استيلائِهِ عَلَى مُلكِ المناذرَةِ حُكَّامِ وملوكِ الحيرَةِ.

وكانَ الشَّاعِرُ عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ مِنْ جُلساءِ حِجرٍ ومِنْ نُدمائِهِ، وقَدْ قَالَ فيه شِعراً، وكانَ مِنْ عادَةِ بَني أَسدٍ أَنْ يدفَعوا كُلَّ عامٍ لِمَليكِهِمْ إِتاوَةً ماليَّةً، وفي أَحدِ الأَعوامِ امْتَنَعَ بَنو أَسدٍ عَنْ دَفْعِ الدِّيَةِ، فَسارَ إِليهم «حِجرُ بْنُ الحارثِ» بِجندِهِ، فَأَخَذَ أَموالَهُمْ، وقَتَلَهُمْ بِالعِصِيِّ، فَسُمُّوا عبيدَ العَصَا، وأَسَرَ مِنْهُمْ طائِفةً فيهم عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ، فَقَامَ عُبيدُ بْنُ الأبرصِ بينَ يَدي المَلك، وقَالَ:

يا عَيْنِ فَابْكي ما بَني ... أَسدٍ فهُمْ أَهلُ النَّدامهْ
أَهْلُ القِبابِ الحُمْرِ والْـ ... ـنَعَمِ المُؤبَّلِ والمُدامَهْ
أَنْتَ المَليكُ عَليهِمُ ... وهُمُ العَبيدُ إِلى القيامَهْ

فعفَا عَنْهُمُ المَلِكُ وأَطلَقَ سراحَهُمْ، ويَعودُ الفَضْلُ في ذَلِكَ إلى عُبيدِ وإلى دَهائِهِ وحُسْنِ سياسَتِهِ.

لَمَّا خَرجَ بَنو أسدٍ مِنْ عِندِ الملكِ «حِجرٍ» ثارَتْ في نفوسِهِمُ الحميَّةُ مِنْ هَذا الملكِ المُستبدِّ، فَأجْمَعوا أَمرَهُم عَلَى قَتلِهِ، فساروا إليهِ ودَخلوا عليه وهو نائمٌ وقَتلوهُ واستاقوا أموالَهُ.

وعِندما سَمِعَ ابْنُهُ الشَّاعِرُ «امرؤُ القيس» خَبَرَ مَقتَلِهِ، جَمَعَ الجموعَ وسارَ إلى بَني أسدٍ مُتوعِّداً إياهُمْ عَلى الثَّأرِ لأَبيهِ، ولكنَّهُ لم يُفلِحْ في النيل مِنْهُمْ، فَأنشَد شاعرُ بَني أسدٍ «عُبيد بْنُ الأَبرص» رادّاً على امرئِ القيسِ وعيدَهُ:

يـاذَا الـمُـخـوِّفَـنـا بِـقَـتْـ ... ـلِ أَبـيـهِ إذلالاً وَحَـيْـنـا

أَزَعَـمْـتَ أَنَّـكَ قَـتَـلْـ ... ـتَ سُراتَـنـا كَـذِبـاً ومَـيـنَـا[1]

هَـلَّا عـلـى حُـجـرِ بْـنِ ... أُمِّ فِـطـامٍ تَـبـكـي لا عـلـيـنـا

هَـلا سَـأَلـتَ جـمُـوعَ كِـنْـ ... ـدَةَ يـومَ وَلُّـوا أيـنَ أَيـنـا

ولَـقَـدْ صَـلـقـنـا[2] هـوازنـاً ... بِـنَـواهِـلٍ حَـتَّـى ارتـويـنـا

ولَـقَـدْ أَبَـحـنـا مـا حَـمـيـتَ ... ولا مُـبـيـحَ لِـمَـا حَـمـيـنـا

هَـذا ولـو قَـدرَتْ عـلـيـك ... رِمـاحُ قـومـي مـا انْـتَـهـيـنـا

---

(1) المَيْن: الكذب.

(2) صلق: أوقع به وقعة شديدة.

إِنَّــا لِــعَــمْــرُك لا يُــضــامُ حَــلــيــفُــنــا أَبــداً لَــديــنــا

وبَعْدَ مَقْتَلِ «حِجْرِ بْنِ الحارثِ» أَخَذَ عُبيدُ يتردَّدُ على الحيرَةِ يمدحُ مَلِكَها المُنذرَ بْنَ ماءِ السَّماءِ وصارَ مُقرَّباً إِلى بلاطِهِ، ولَكِنَّ «المُنذرَ» كانَ مَلكاً سَفاحاً وطاغيَةً لا يُؤمَنُ لَهُ جانِباً، يَغدُرُ بِنُدمائِهِ مَتى انْقَدَحَ في عَقلِهِ ذَلِكَ، ويقالُ: إِنَّ الملِكَ المُنذرَ كانَ لَهُ يَومٌ في السَّنَةِ يُقالُ لَهُ يومَ بُؤسٍ يَقْتلُ فيهِ أَوَّلَ مِنْ يلقاهُ مِنَ النَّاسِ فيهِ مهما يَكُنْ أَمرُهُ.

وصَادَفَ في ذَلِكَ اليَومِ أَنْ كانَ «عُبيدُ بْنُ الأَبرص» أَوَّلَ مَنْ يلقاهُ المُنذِرُ، فَلَمْ يتورَّعْ هَذا الطَّاغيةُ السَّفاحُ عَن قَتلِهِ وإِنْهاءِ حياتِهِ، إِرضاءً لجَبروتِهِ ولِشَهوَةِ القَتلِ لَديهِ، عِلماً أَنَّهُ كانَ مِنْ أَشدِّ المعُجبينَ بِشِعرِه، ولَكِنْ رُبَّما كانَتْ في نَفسْهِ مَرام وأَشياءُ مِنْ قَتلِ امرئِ القيس، هَذا الشَّاعِرِ الكَبير، الَّذِي جارَى بِشعرِهِ أعظَمَ الشُّعراءِ الَّذِينَ عاصَرهُمْ في ذَلِكَ الوَقتِ.

قُتلَ «عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ» بِهذا الأُسلوبِ الدَّامي المَرير، وأُسدلَ السِّتارُ عَلى حياتِهِ الحافِلَةِ بِالعَطاءِ سَنة (554) ميلاديَّةً، والَّتِي أَغفَلَ المُؤرخونَ جوانبَ مُهمَّةً فيها.

ولَقَدْ كان مِنْ شِعرِهِ ديوانٌ يحوي (47) قصيدةً، ومجموعُ أبياتها (632) بيتاً مِنَ الشِّعرِ، جُلُّهُ في الوَصفِ والمواعظِ وذكرِ التَّوحيدِ، الأَمرُ الَّذِي يجعَلُنا نجزمُ بِأَنَّهُ كانَ مِنَ شُعراءِ العَربِ الحُنفاءِ الموحدينَ.

لَقَدْ كانَ شِعرُ «عُبيدِ بْنِ الأَبرصِ» قَويّاً جَزلاً. ومِنْ أَشهرِ قصائده مُعَلَّقَتُهُ الَّتِي يقولُ

فيها: «أَقْفَرَ مِنْ أَهلِهِ مَلحوبُ». وهي بائيَّةٌ مُؤَلفَةٌ مِنْ (45) بيتاً، فيها الوَصفُ والقِصَّةُ والوَعظُ والإرشادُ والتَّوحيدُ.

ومِنْ أَجمل ما قال فيها مِنْ أَبياتٍ، تلكَ الَّتِي ذَكر فيها التَّوحيدَ واستخلاصَ العِبرَةِ مِنَ الحياةِ، فيقولُ:

أَرضٌ تَوارَثَها شُعوبٌ ... وكُلُّ مَنْ حَلَّها مَحروبُ
إِمَّا قَتيلاً وإِمَّا هالِكاً ... والشَّيبُ شيءٌ لِمَنْ يَشيبُ
فكُلُّ ذي نعمَةٍ مَخلوسٌ[1] ... وكُلُّ ذي أَملٍ مَكذوبُ
وكُلُّ ذي إِبلٍ موروثٌ ... وكُلُّ ذي سَلَبٍ مَسلوبُ
وكُلُّ ذي غَيبَةٍ يؤوبُ ... وغائبُ الموتِ لا يَؤوبُ

ويقولُ فيها أيضاً:

لا يَعِظُ النَّاسُ مَنْ لم يَعظِ ... الدَّهرُ ولا ينفَعُ التَّلْبيبُ[2]
مَنْ يَسلِ النَّاسَ يَحرموهُ ... وسائلُ اللهِ لا يخيبُ
والمَرءُ ما عاشَ في تكذيبٍ ... طُولَ الحياةِ لَهُ تعذيبُ

كَما جاءَ في أَشعارِهِ الحِكمَةُ والعبرَة، فيقولُ:

---

(1) مخلوس: مسلوب.
(2) التلبيب: التعقل.

تَرى المرءَ يَصبو للحياةِ وطولِها وفي طولِ عَيشِ المرءِ أبرحُ تعذيبِ

ويقولُ:

حَلَفْتُ بِاللهِ إنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لِمَنْ يشاءُ وذو عَفوٍ وتَصفاحِ

ويقولُ:

هَلْ نَحنُ إلَّا كَأَجسادٍ تَمرُّ بِها تَحتَ التُّرابِ وأرواحٍ كَأرواحِ

ومِنَ الأَخبارِ الطَّريفةِ الَّتِي ذُكرتْ في حياةِ هَذا الشَّاعِرِ ما رواه «القرشيُّ» في «الجَمهَرةِ» فقالَ:

«روي أَنَّ عُبيدَ بْنَ الأَبرصِ خرجَ في ركبٍ مِنْ بني أسدٍ، فبينَما هُمْ يسيرون إِذْ بِشجاعٍ[1] قد احترقَتْ جَنباهُ مِنَ الرَّمضاءِ[2].

فقالَ لَهُ بَعضُ أَصحابِهِ: دونَكَ الشُّجاعَ يا عبيدُ فاقتلْهُ.

فقالَ: هُوَ إِلى غير القَتلِ أَحوج.

فَأَخَذَ إِداوَةً مِنْ ماءٍ فَصبَّها عليهِ، فانْسابَ الشُّجاعُ ودَخَلَ في جُحْرِهِ، وسارَ القومُ فَقضوا حوائِجَهُمْ، ثُمَّ أَقبلوا حتى صاروا إلى ذَلِكَ الموضعِ الَّذِي فيه الشُّجاع، فَتَأَخَّر عُبيدٌ، وشَردَ بِكرُهُ[3]، فَسارَ القَومُ، وبَقي عبيدٌ متحيِّراً، فَإِذا بِهاتفٍ مِنْ عَدوَةِ الوادي وهو يقولُ:

---

(1) الشجاع: الثعبان.

(2) الرمضاء: شدة الحر.

(3) بكرهُ: ناقته.

يا صاحِبَ البِكرِ المُضل مركَبَهُ دونَكَ هذا البكرَ منَّا فاركَبْهُ

فالتَفَتَ عُبيدٌ، فإذا هو ببكرِهِ وبكرٍ إلى جانبِهِ فركبَهُ حَتَّى إذا صارَ إلى دارِ قومِهِ، ثمَّ أرسلَ البِكرَ وأنشأ يقولُ:

يا صاحبَ البِكرِ قَدْ أَنقذتَ مِنْ بَلدٍ تحارُ في حافيها المُدلِجُ[1] الهَادي

هَلَا أَبَنْتَ لَنا بِالحقِّ نَعرفُهُ مَنْ ذا الَّذِي جَادَ بالمعروفِ في الوادي

فَأجابَهُ هاتفٌ يقولُ:

أَنا الشُّجاعُ الَّذِي أَلفيتَهُ رَمِضاً في رملةٍ ذاتَ دِكاكٍ[2] وأَعقادِ

فَجُدْتَ بِالماءِ لَمَّا ضَنَّ حاملُهُ جوداً عليَّ ولَمْ تَبْخَلْ بِإنجادي

هَذا جَزاؤُكَ منِّي لا نمنُّ بِهِ فارجِعْ حميداً رعاكَ اللهُ مِنْ عادي

الخَيرُ أَبقَى وإِنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ والشَّرُّ أَخبَثُ ما أوعيتَ مِنْ زادِ

---

(1) المدلج: من يسير ليلاً.

(2) دكاك: ما استوى من الرمل.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا قال أبو الفرج الأصفهاني عن الشاعر لبيد؟

2 ـ كيف أتى الشعر للبيد؟

3 ـ من هم عبيد العصا؟

4 ـ ما علاقة المنذر بالشاعر لبيد؟

5 ـ ماذا تصف معلقة «أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحوب»؟

6 ـ كيف تعامل لبيد مع الشجاع؟

زُهيرُ بنُ أَبي سُلْمى
شَاعِرُ الإِصلاحِ
(530 ـ 627م)

الحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاة والسَّلامُ عَلَى سيِّدنا مُحمَّدٍ سَيِّدِ الأنبياءِ والمُرسلين، وبعد، أَعزَّائي:

سَنَقرأ في هَذهِ الصَّفحاتِ اليَسيرةِ سُطوراً عَنْ حياةِ شاعرٍ عربيٍّ أَصيلٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُولى مِنْ شُعراءِ العَربِ الجَاهليِّينَ، قد عُرِفَ بِحكمَتِهِ، وبُعْدِ نَظرِهِ، وتمجيدِهِ لِلعَقل، وحُبِّهِ للإِصلاحِ بينَ النَّاسِ، وبِسَعيِهِ الحثيث نحوَ الخَيرِ وصُنْع المعروفِ وتَوخِّي الحَذَرِ مِنَ الجُنوح نَحوَ الأَهواءِ والشَّهواتِ.

كانَ هَذا الشَّاعِرُ صاحِبَ رسالَةٍ إِصلاحيَّةٍ يُبَشِّرُ بِها بَينَ النَّاسِ، وسَعَى إِلى تَوطيدِ أَركانِها في الحياةِ، وتَرَكتْ رِسالتُهُ الإِصلاحيَّةُ هَذهِ أَثراً حميداً وواضِحاً في حياةِ العَربِ في الجاهليَّةِ، وذَلِكَ عِنْدَما كانَ العَربُ لا يؤمنون إِلَّا بِالقُوَّةِ أَو البَطشِ مِنْ أَجْلِ رَدِّ الحَقِّ، أَو رَفعِ الظُّلْمِ، أَو رَدْعِ الفاسِدِ، فَدَعا شاعِرُنا هَذا إِلى اسْتِخدامِ لُغةِ العَقلِ والحِكمَةِ إِلى جانِبِ لُغةِ القُوَّةِ والقَهرِ.

كَما أَنَّنا نُلاحِظُ في سيرةِ هذا الشَّاعِرِ المجيدِ، أَنَّهُ لم يَعِشْ لِنَفسِهِ ولأَهوائِها، ولَمْ تَسْتهوِهِ حَياةُ اللَّهو والمجُونِ واللَّعبِ الشَّرابِ كَغيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ الَّذِينَ سَبَقوهُ، وإِنَّما عَاشَ مِنْ أَجْلِ مُجْتَمعِهِ وقَبيلَتِهِ، ومِنْ أَجْلِ إِرساءِ القِيم العَربيَّةِ البَدويَّةِ الَّتِي كانَتْ تُمَيِّزُ العَربَ عَنْ غَيرِهِمْ مِنَ الأُمَم في ذَلِكَ العَصر، مِنْ كرمٍ وشَجاعةٍ ونَجدَةٍ ومروءَةٍ وحُبٍّ للخَيرِ والمعروفِ.

ولِهذا لا نَراهُ يَسْعَى إِلى بلاطِ الملوكِ، ولَمْ يَقف عَلَى أَبوابِهِم لِيَحظَى بِعنايَتِهِمْ وإِكرامِهِمْ، وإِنَّما سَعَى إِلى الحُكماءِ وإِلى أَهلِ الفَصاحَةِ، وذَوي الخبرَةِ والعقلِ، يَسْتَزيدُ مِنهُمُ الحِكمَةَ، ويَنْهلُ مِنْ عرفانِهِمْ، ويَسْتَرشِدُ بآرائِهِمْ، ويَسْتَنيرُ فيهِمْ طريق الخيرِ والإيمانِ والتَّقوى.

لَقَدْ مَدَحَ الشَّخصياتِ الكريمةَ مِنْ أَهلِ الحكمَةِ ومِنْ ذَوي النَّجابَةِ والكَرمِ والمعروفِ مِنَ العَرَبِ، إِذْ كانَ يَراهُمْ خَيراً مِنَ الملوكِ والحُكَّامِ ومِنْ ذَوي الجَاهِ والسُّلطانِ، لأَنَّهم دَوماً يَبْنونَ فلا يَهدمونَ، ويُحيُونَ فَلا يقتلون، ويَسعونَ دائِماً مِنْ أَجلِ إِدْخالِ الفَرحِ والسَّعادَةِ في قُلوبِ النَّاس.

ولِهذا جاءَ شعرُهُ مُتَّزِناً حكيماً ـ كشخصيَّتِهِ تَماماً ـ فيهِ العَقلُ والحِكمَةُ والرَّويَّةُ والأَخلاقُ الحميدَةُ، حَتَّى في هِجائِهِ كَانَ يُؤثرُ السَّلامَة على الحَربِ، والكَلمَةَ الطَّيبَةَ عَلى الخَبيثَةِ، ويُحاولُ تَنميةَ جانبِ الخَيرِ والصَّلاحِ في الشَّخصيَّةِ الَّتِي يهجوها، بَلْ لَمْ يَسْتَعمِلْ في شِعرِهِ الأَلفاظَ الجارحَةَ الَّتِي فيها حَطٌّ مِنْ كرامَةِ الإِنْسانِ أو مِنْ قَدرِهِ.

وفَوقَ هَذا وذَاكَ، كانَ هَذا الشَّاعِرُ مُؤمناً بِاللهِ، صَاحِبَ عقيدةٍ سَماويَّةٍ تَسمو عَلَى عبادَةِ الأَوثانِ والأَصنام قولاً وفعلاً وسلوكاً؛ إِذْ كانَ يدينُ بِالمسيحيَّةِ حينَها، ويُخالِطُ المُوحِّدينَ مِنْ حُنفاءِ العَربِ.

فَهلْ عَرَفْتُمْ مَن يكونُ هَذا الشَّاعِرُ؟

إِنَّهُ الشَّيخُ الحكيمُ والشَّاعِرُ المُصلِحُ «زُهيرُ بْنُ أَبي سُلْمَى».

فَتعالَوا لِنَقْتَربِ في أناةٍ قليلاً مِنْ حياةِ هَذا الشَّاعِرِ المجيدِ.

يَرجِعُ أَصْلُ الشَّاعِرِ «زُهير بْنِ أبي سُلْمَى إِلى بني مُزينَةَ مِنْ قَبائِل مُضَرٍ العربيَّةِ الَّتِي سَكَنَتْ في بوادي نَجدٍ، ولأَمرٍ ما تَركَ والِدُ الشَّاعِرِ «زُهيرِ بْنِ أَبي سُلمَى» ـ «رَبيعَةُ» ـ قَومَهُ واعتَزَلَ مَضارِبَهُم، وأَتَى قبائِلَ غَطفانَ وأَقامَ فيهِمْ وتَزوَّجَ فيْهُمُ امرأَةً تَربُطُهُ مَعَها قَرابَةٌ، فأَنْجَبَ مِنْها الشَّاعِرَ «زُهيراً».

نَشَأَ وتَرعرعَ هذا الشَّاعرُ في غَطفانَ مُتَنَقِّلاً بَيْنَ قبيلَتي عَبْس وذُبيانَ، ومُنذُ صِغرِهِ ظَهرَتْ عليهِ علاماتُ النَّجابَةِ والذَّكاءِ، وكانَ يَتَوَخَّى مَعالي الأُمور، ويُجالِسُ الحُكماءَ وفُضَلاءَ العَربِ الَّذِينَ عُرِفوا بِرجاحةِ عَقلِهِمْ، يحفَظُ مِنْهُمُ الحكمَةَ والشِّعرَ.

وقَدْ تَأثَّرَ في صِغَرِهِ بِخالِ أَبيه ـ «بشاقةَ» الشَّاعِرِ المعروفِ ـ فَلَزِمَهُ وحَفِظَ عَنهُ الشِّعرَ، وأَخَذَ مِنْهُ الرَّصانَةَ والتَّعقُّلَ والأَخلاقَ الرَّشيدَةَ الَّتِي كانَ عليها فُضلاءُ العَربِ.

وَلكِنْ لم يكَدْ زُهيرُ يَرى الشَّمسَ، ويَتفتَّحُ عقلُهُ على الدُّنيا حَتَّى مُنيَ بِوفاةِ أَبيهِ «ربيعةَ»، فَتَزَوَّجَتْ أُمُّه مِنْ شاعِرٍ وَحكيمٍ مِنْ مُضَر اسمُهُ «أَوسُ بْنُ حِجْرٍ التَّميميُّ» ويُعَدُّ أَوسُ هذا

مِنْ أَعلامِ العَربِ المعروفينَ في الجاهليَّةِ، وكانَتْ لَهُ طَريقَتُهُ في الشِّعرِ، وهُوَ زعيمُ المدرسَةِ الأَوسيَّةِ الَّتِي تُنسبُ إِليهِ صناعَةُ الشِّعرِ والقَريضِ.

كَما كانَ أوسُ بْنُ حِجْرٍ ـ كما أَشاعَ المُؤَرخونَ عَنْهُ ـ مِنَ الحُنَفاءِ الَّذِينَ يعتَنقونَ مِلَّةَ التَّوحيدِ، مِلَّةَ إِبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، ولا يعترفونَ بِعبادَةِ الأَوثانِ والأَصنَامِ الَّتِي كانَ عليها عامَّةُ العَربِ حينَها، فَتأَثَّر بِهِ زُهيرُ.

أَقامَ الشَّاعِرُ «زُهيرٌ» في مَضارِبِ غَطفانَ، واشْتُهِرَ بينَهُمْ بِأَخلاقِهِ الحَسَنِةِ، ورَصانَةِ سلوكِهِ ونَزاهَتِهِ، وتَرفُّعِهِ عَنِ الأَخلاقِ الذَّميمةِ.

وفي غَطفانَ تَزوَّجَ «زُهيرٌ» مَرَّتين. وزَواجُهُ في المرَّةِ الثَّانيةِ كانَ لأَسْبابٍ اضْطَّرتْهُ لِذلِكَ، حَيْثُ كانَتِ امرأَتُهُ الأَولى عقيماً، وكانَ اسْمُها «أُمَّ أَوفَى»، وقدْ أَفْرَدَ لَها حبّاً مُخْلِصاً وذَكَرها في مُعَلَّقَتِهِ، وتَغَنَّى بِها صبابَةً وشوقاً وَلكِنَّ حُبَّهُ لِلذُّريَّةِ والأَولادِ دَعاهُ إِلى الزَّواجِ مَرَّةً ثانيةً، فَتزوَّجَ بِامرأَةٍ مِنْ غَطفانَ تُدعَى «كَبْشَةَ»، ورُبَّما لَمْ تَحتَمِلْ «أُمُّ أَوفَى» أَنْ يكونَ لها ضرَّةٌ فَطَلَبَتْ مِنْ زَوجِها الطَّلاقَ، فطلَّقَها مُكرَهاً، وَلكِنَّهُ لَمْ يَنسَها طِوالَ عُمرِهِ، فَذَكرَها بِلَوعَةٍ وأَسى، وَراحَ يَذرِفُ عليها الدُّموعَ كُلَّما أَطَلَّ في خيالِهِ ذكراها، فَيقولُ في مَطلَعِ مُعَلَّقَتِهِ المشهورَةِ بـ «الميميَّة»:

أَمِنْ أُمِّ أَوفَى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلِّمِ[1]

(1) دمنة، حومانة، المتثلم: أسماء أماكن.

وهو يَقصِدُ في هَذا البيتِ أَنَّ الدِّيار والأماكِنَ والمنازِلَ عادَتْ صامِتَةً لا تَتكلَّمُ ولا تُجيبُ سُؤالَهُ بَعْدَ أَنْ غابَتْ عَنْها أُمُّ أَوفَى.

أَنْجَبَتْ لَهُ زوجتُهُ «كبشةُ» وَلدينِ، أَصْبحا فيما بَعدُ مِنْ كِبارِ شُعراءِ العَربِ كَأَبيهِما. فقد أَنجَبَتْ لَهُ «كَعبَ بْنَ زهير» الشَّاعرَ المعروفَ، وصاحِبَ قصيدةِ «بانَتْ سُعادُ»، كَما أَنْجَبَتْ لَهُ «بُجيرَ بْنَ زُهير» الَّذِي كانَ شاعِراً أَيضاً، ولَكِنْ لم يَنَلِ الشُّهرَةَ الَّتي نالَها أَبوهُ وأَخوهُ.

لازَمَ «زُهيرُ بْنُ أَبي سُلْمَى» رَجُلاً مِنْ أَشهرِ العَربِ ومِنْ فُضَلائِهِمْ وحُكمائِهِمُ اسْمُهُ «هَرِمُ بْنُ سِنانٍ»، الذي اشْتُهِرَ بِالكَرمِ والجودِ، وهو يحبُّ الخَيرَ والمَعروفَ والسَّلامَ إِلى جانِبِ ثَقافَتِهِ وحَصافَتِهِ وعلمِهِ بِالشِّعرِ والقَريضِ، فَاسْتفَادَ منه الشَّاعِرُ «زُهيرٌ» كَثيراً، واقْتَضى أَثَرهُ عَملاً وقَولاً وَخُلُقاً، وخَصَّهُ بِالمديحِ في أَكثَرَ مِنْ قَصيدَةٍ، فَمثَلاً يَقولُ لَهُ مُخاطباً:

أَثْني عليكَ بِما عَلِمتُ وما سَلَّفْتَ في النَّجداتِ والذِّكرِ

كَما كانَ «زُهيرٌ» يُعجَبُ بِالأَعمالِ الحَسَنَةِ الكريمَةِ الَّتِي تظهَرُ فيها أَخلاقُ العَربِ وشِيَمُهُمُ الحَميدةُ، فَما كانَ يُصادِفُ في حَياتِهِ رَجُلاً مِنَ العَربِ يَصنَعُ الخيرَ، ويُجري المَعروفَ بينَ النَّاسِ إِلَّا مَدَحَهُ وشَكَرَهُ وشَجَّعَهُ وأَشادَ بِفِعالِهِ وصَنائِعِهِ الخَيِّرةِ بينَ النَّاسِ.

فَمَدَحَ أَيضاً رَجلاً مِنَ العَربِ اسْمُهُ «حصنُ بْنُ حُذيفةَ» كانَ مِنْ أَهلِ الكَرمِ والعَزمِ والحِلمِ والعَدلِ، ومِنْ ذَوي الفَضلِ والمعروفِ، فَقالَ فيهِ:

أَخي ثِقَةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ولَكِنَّهُ قَدْ يُهلِكُ المالَ نائِلُهُ

تَـراهُ إذا مـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهـلِّـلاً كَـأَنَّـكَ تُـعـطـيـهِ الَّـذِي أَنْـتَ سـائِـلُـهُ

فَمَدحُ «زهيرٍ» لِهَؤُلاءِ كانَ يَدفَعهُمْ ويُشَجِّعُهُمْ إلى مَزيدٍ مِنَ الكَرمِ وصُنْعِ الخَيرِ والمعروفِ وإشاعَةِ الأمنِ والسَّلامِ بَيْنَ النَّاسِ، وربَّما يَرجعُ إليهِ الفَضلُ في تشجيعِ «هَرِم بْنِ سِنانٍ» و«حَفص بْنِ حُذيفَةَ» ورَجلٍ ثالِثٍ مِنْ فُضلاءِ العَربِ يُقالُ لَهُ «الحَرنَ بْنَ عوفٍ» إلى إصلاحِ ذاتِ البَينِ بينَ قَبيلَتي عَبْس وذُبيانَ بَعْدَ أَنْ أَهلَكَتِ الحَربُ بينَهما الحَرْثَ والنَّسلَ، واسْتَمرَّتْ أَربعينَ سَنةً مُتواليات، ودَفَعوا الدِّياتِ مِنْ أَموالِهِمْ وحَقَنوا الدِّماءَ بَيْنَ العَربِ، فَزُهيرُ بْنُ أَبي سُلْمَى خَلَّدَ هَؤلاءِ الفُضلاءَ، وخَلَّدَ أَعمالَهُمُ الخَيِّرَةَ في شعرِهِ الَّذِي مَدحَهُمْ فيه.

تَميَّزَ شعرُ المديحِ عِنْدَ «زُهيرِ بْنِ أَبي سُلْمَى» بِالرَّصَانَةِ والرَّزانَةِ والصِّدْقِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَمدَحَ رَجُلاً إلَّا بِصفاتٍ وأَوصافٍ كان يَعرفُها فيهِ جيِّداً ويَلمُسُها بِنفسِهِ، فَلَمْ يكُنْ يُغالي في وَصْفِ المَمدوحِ، أَو يُضَخِّمُ وَصفَهُ لَهُ بِما ليسَ فيهِ أو لا يُطابِقُهُ في الواقعِ، وقَدْ شَهِدَ هُوَ نَفسُهُ عَلَى ذَلِكَ بِقولِهِ مُخاطِباً «هَرِم بْنَ سنانٍ»:

أَثْـنـي عـلـيـكَ بِـمـا عَـلِـمـتُ ومـا سَـلَّـفـتَ فـي الـنَّـجـداتِ والـذِّكـرِ

كَما كان زُهيرُ بْنُ أَبي سُلْمَى حَريصاً على مَدحِ هَؤلاءِ الفُضلاءِ عَلَى تَحقيقِ خيرِ القَبيلَةِ والمُجْتَمعِ، فَشعرُهُ المَدحيُّ كانَ يُؤدي وظيفةً اجتماعيَّةً عُليا وهي تَحقيقُ الصَّالِحِ العَام، لِكُلِّ أَبْناءِ القبيلَةِ والمُجتَمَعِ.

قُلنا فيما سَبقَ، أَنَّ الشَّاعِرَ «زُهيراً» كانَ رَجُلاً مِنْ ذَوي العَقلِ والحَزمِ، يُؤثِرُ السَّلامَ

على الحَربِ، ويَسْعَى دائماً نَحو الخَيرِ والإصلاح.

ولِهذَا لَعِبَ دوراً بارزاً في إِيقافِ عُرَى الحَربِ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ أَربعينَ سَنَةً بَينَ قَبيلتي عَبْس وذُبيانَ، وكانَ لَهُ فَضْلٌ لَمْ يَتَجاوَزْهُ التَّاريخُ في إِطفاءِ أَتُونِها، وذَلِكَ في سَعيِهِ الحَثيثِ والدَّائمِ في تَقريبِ وُجهاتِ النَّظرِ بينَ الفَريقين، وبيانِ عَواقِبِ الحربِ ونَتائجِها الوَخيمةِ، وشَرحِ الحالِ الَّذِي آلَتْ إِليهِ أَوضاعُ كُلٍّ مِنَ القَبيلتينِ عَلَى السَّواءِ.

فَلَقَدْ طَفِقَ يَشرَحُ بِشعرِهِ الشَّررَ الَّتِي تُضرِمُ نارُها الحَربَ إِذا اسْتمرُّوا فيها ولَمْ يُحكِّموا عُقولَهُمْ ويَقبَلوا بِالصُّلحِ فيما بَينَهُمْ، وبأَنَّها تَطْحَنُ الودَّ والمحبَّةَ في قلوبِهِمْ كما تَطحَنُ الرَّحَى الحَبَّ بِثِفالِها[1]، أو هي كاللُّقاحِ الَّذِي لا يُنتجُ إِلا اليُتْمَ لِأَولادِهِم، وبِأَنَّها تَغلُّ[2] مِنَ الدِّياتِ بِدماءِ قتلاهُم ما لا تُغلُّ وتُنتِجُهُ قُرَى العراقِ مِنْ خيراتٍ ونِعَمٍ، فَقالَ يُخاطِبُهُمْ:

ومَا الحَربُ إِلَّا ما عَلِمتُمْ وذُقْتُمُ ... وما هُوَ عَنْها بِالحديثِ المُرَجَّمِ[3]

مَتَى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إِذا ضَرَّيتمُوها فَتَضْرَمِ

فَتَعرِككُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفالِها ... وتَلقَحُ كِشافاً ثُمَّ تُنْتِجُ فَتُتْئِمُ

فَتُغلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِلُّ لِأَهلِها ... قُرًى بِالعراقِ مِنْ قَفيزٍ[4] ودِرهَمِ

---

(1) تغل: تثمر وتنتج أو تستهلك الأموال.

(2) بثفالها: الثفل: ما يُبسط تحت الرحى عند الطحن.

(3) المرجَّم: المبالَغ.

(4) قفيز: مكيال كان يكال به قديماً.

فَالصُّلْحُ والسَّلامُ عِنْدَ «زُهيرٍ» مِنْ أَثمنِ الأمورِ في الحياةِ، ومِنْ أَفْضَلِ المَعاني في الوجودِ، فَما فَتِئَ يُعلي مِنْ صَرحِهِما ويُحَبِّبُ النَّاسَ إِليهما حَتَّى انْصاعَ القَومُ لِرأيهِ، وانْقَطَعَ القِتالُ بَينَهُمْ، وحَطَّتِ الحربُ أَوزارَها، ونَعِمَ الجَميعُ بِالسَّلامِ والأمانِ، فَراحَ يَتَغَنَّى بِهذا الصُّلحِ، وأَخَذَ يُزجي بِالنُّصْحِ مُتَوجِّهاً إِلى الطَّرفينِ حَتَّى لا يعودوا إِلى الحَربِ مَرَّةً أُخرى، فقالَ لَهُمْ مُخاطباً:

أَلا أَبْلِغِ الأَحلافَ عَنِّي رِسالَةً ... وذُبيانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقْسَمِ
فَلا تَكتُمنَّ اللهَ ما في صدورِكُمْ ... لِيَخفَى، ومَهما يَكتُمِ اللهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَعُ في كتابٍ فَيُدَّخرْ ... لِيومِ الحسابِ أو يُعَجَّل فَيُنْقَمِ

عَاشَ الشَّاعِرُ «زُهيرٌ» مِنْ أَجْلِ الآخرينَ أَكثَرَ مِمَّا عاشَهُ لِنَفسِهِ، وحَمَلَ عَلَى عاتِقِهِ هَمَّ الإِصلاحِ والإِرشادِ والنُّصْحِ، قياماً بِالواجِبِ، وتحمُّلاً للمسؤوليَّةِ تجاهَ قَبيلَتِهِ ومُجتَمَعِهِ وأُمَّتِهِ، فَكانَ بِحَقٍّ شاعِرَ الإِصلاحِ، ورائِدَ السَّلامِ، ورَجُلَ الحِكمَةِ الَّتِي خَبرَها طِوالَ حياتِهِ، فَلَقَدْ عمَّرَ أَكثَرَ مِنْ ثمانينَ عاماً، فَعَرفَ الحياةَ وخَبِرَ حُلوَها ومُرَّها، وأَمْلَتْ عَليهِ شَيخوخَتُهُ الهادِئَةُ الرَّزينَةُ وخبرتُهُ الواسِعَةُ، وصُحبتُهُ لِفُضلاءِ العَربِ وحُكمائِهِمْ، وحُبُّهُ للخيرِ والإِصلاحِ آراءَهُ الحَكيمةَ، فَراحَ يعكسُها في شِعرِهِ بألفاظٍ هادِئَةٍ مُتَناسِقَةٍ رصينَةٍ، وبِصورٍ رائِعَةٍ يتَجلَّى فيها العَقلُ المُتَّزِنُ الَّذِي يَرقَبُ أَحوالَ النَّاسِ، ويَسْتَخلِصُ مِنْها الدُّروسَ والعِبَرَ الَّتِي تُوصِلُ إِلى السَّعادَةِ، وتُحقِّقُ الأمنَ والسَّلامَ والرَّخاءَ.

ولَيسَ بِعَجيبٍ ـ مِنْ شَيخٍ هَكذا شَأنُهُ ـ أَنْ تَخرُجَ الحِكمَةُ مِنْ فَمِهِ عاقِلَةً رزينَةً كَشَخصيَّتِهِ

الهادِئَةِ الرَّزينَةِ، كقولِهِ:

ومَنْ لا يُصانِعْ في أُمورٍ كثيرَةٍ يُضرَّسْ بِأَنيابٍ ويوطَأْ بِمَنْسَمِ[1]

ومَنْ يَكُ ذا فَضلٍ فَيبخَلْ بِفضلِهِ عَلَى قومٍ يُسْتَغنَ عَنهُ ويُذمَمِ

ومَنْ يَجعَلِ المعروفَ في غيرِ أَهلِهِ يكُنْ حَمدهُ ذَمّاً عليهِ ويَندمِ

ومَهما تَكُنْ عِنْد امرِئٍ مِنْ خَليقَةٍ وإِنْ خالَها تَخفَى عَنِ النَّاسِ تُعلم

تُوفِّي الشَّاعِرُ «زُهيرٌ» سَنَةَ (627) ميلاديَّةً ولَهُ مِنَ العُمرِ (97) سَنَةً، فَكانَ مِنْ أَكثرِ شُعراءِ العَربِ في الجاهليَّةِ عُمراً وخبرَةً في الحياةِ.

وقَدْ خَلَّدَ التَّاريخُ مِنْ شعرِهِ الَّذِي وَصَلَ إِلينا ديواناً أَحصَى فيه المُؤَرخونَ ما يُقارِبُ (1083) بيتاً مِنَ الشِّعرِ، وفيهِ الكثيرُ منِ الوَصفِ والحكمَةِ.

وأشهَرُ ما في ديوانِهِ المعلَّقَةُ الَّتِي مطلَعُها:

أَمِنْ أُمِّ أَوفَى دِمنَةٌ لَمْ تكلَّمِ بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثلَّمِ

وميميَّةٌ أُخرى مطلعُها:

قِفْ بِالدِّيارِ الَّتِي لم يَعفُها القِدمُ بلى وغيرُها الأَرواحُ والدِّيَمُ

وقافيَّةٌ مَطلعُها:

إِنَّ الخَليطَ أَجدَّ البَيْنَ فَانْفَرقا وعُلِّقَ القَلبُ مِنْ أَسماءِ ما عَلِقا

---

(1) المنسم: خفُّ البَعيرِ.

وقافيَّةٌ مطلعُها:

بَانَ الخَليطُ ولَمْ يَأوُوا لِمَنْ تَركوا وزَوَّدوكَ اشتياقاً أَيَّةَ سَلكوا

قَالَ الأُستاذُ الكَبيرُ «بطرسُ البُستانيُّ» في حَقِّ الشَّاعِرِ زُهيرِ بْنِ أَبي سُلْمَى: «كانَ قاضي صُلْحٍ يُصدِرُ أَحكامَهُ شِعراً، لا لَمحَ ولا غُموضَ، ولا يقولُ إِلَّا ما يعرفُهُ النَّاسُ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ إلى ماذا دَعا الشَّاعِرُ زُهيرٌ؟

2 ـ إلى مَنْ يرجعُ أَصلُ زُهيرٍ؟

3 ـ بِمَنْ تَأَثَّرَ زُهيرٌ في صغرِهِ؟

4 ـ مَنْ هُوَ أَوسُ بْنُ حِجْرٍ التَّيمي؟

5 ـ بِماذا اشتهرَ هَرِمُ بْنُ سنان؟

6 ـ كيفَ يظهرُ فضلُ زُهيرٍ في الإِصلاحِ بينَ عَبْس وذُبيانَ؟

7 ـ مَتَى تُوفي الشَّاعِرُ زُهيرٌ، وكَم عاماً عُمِّرَ؟

8 ـ ما هي أَهَمُّ قَصائِدِ زُهيرٍ؟

عنترةُ بن شَداد
شاعرُ الحب والبطولة
(525 ـ 615 م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ، سُطوراً مِنْ حياةِ أَحدِ الشُّعراءِ العربِ المُخضرمينَ في الجاهليَّةِ. هوَ شاعرٌ جَمعَ بينَ مَجدِ السَّيفِ، ومَجدِ البَيانِ أَو القلمِ كَما يُقالُ، صالَ وجالَ في ساحاتِ الوَغَى، وأبدعَ وتَفَنَّنَ في ميادينِ الشِّعْرِ، وكانَ وما يَزالُ أُسطورةً خالدةً، وحكايَةً ماثلَةً في الأَذهانِ، في كُلِّ عَصرٍ وآنٍ، يَقرؤُها الصِّغارُ والكبارُ.

أَجل، كانَ وما يَزالُ هذا الشَّاعِرُ المُجيدُ، مضربَ مَثلٍ في البُطولةِ والشَّجاعةِ في الوجدانِ العربيِّ، كما أَنَّهُ مِثالٌ خالدٌ في الحُبِّ العُذريِّ الطَّاهرِ الشَّريفِ.

فَكَما سالَ سيفُهُ بِالدِّماءِ الَّتِي أُريقَتْ وسُفِحَتْ في ساحاتِ الحربِ، وميادينِ القتالِ، فَقَدِ انهمرَتْ دموعُهُ كَالمطرِ المِدرارِ عَلى جَبينِ اللَّيالي والأَيَّامِ، وهوَ يَبكي حَبيبَتَهُ واقفاً

عَلى الأَطلالِ يُعاني الأَلَمَ مِنْ حرمانِ الوَصلِ، ومِنْ ضَنكِ العاشقِ الوالهِ، كَما حَمَّلَتْهُ الحياةُ مِنْ بَلوائِها ومَآسيها ما تنوءُ عَنْ حملِها الجبالُ الرَّاسياتُ، فَقابَلها بِصبرٍ وجَلدٍ.

جارَ عليهِ النَّاسُ بِفَظاظَتِهِمْ وظُلمِهِمْ وكيدِهِمْ وحَسدِهِمْ لَهُ، بِما لا يُوصفُ أَو يُحتملُ، فَواجَهَ كُلَّ ذَلِكَ بِسماحةٍ وعَفوٍ وصفحٍ.

ورَغْمَ ما عاناهُ هذا الشَّاعِرُ الفارسُ المُغوارُ مِنْ شَظَفِ العيشِ، ونَكدِ الحياةِ، وجورِ الزَّمنِ، لَمْ تَتبدَّلْ نَفسُهُ ولَمْ تَخرُجْ عَنِ اسْتقامَتِها، أو تَملْ نَحوَ الغِلِّ والحقدِ، وإِنَّما ظَلَّ مُثابِراً عَلى قِيَمِ ومبادئِ الفارسِ العربيِّ الأَصيلِ.

ورَغْمَ فقرِهِ كَذلِكَ، كانَ مِنْ أَكرمِ النَّاسِ يَداً، ومِنْ أَحسَنِهِمْ عَطاءً، ومِنْ أَسرَعِهِمْ نَجدةً، ومِنْ أَعفِّهِمْ في ساحةِ المَغنمِ نَفساً، ورَغْمَ ما كانَ بِوسعِهِ أَنْ يَنالَهُ أَو يَحوزَهُ مِمَّا وَصلَ إِليهِ مِنْ عَظمةٍ ومَجدٍ، كانَ زاهداً بِالحياةِ، لا يَأخذُهُ الغرورُ. ولَمْ يَتمكَّنْ مِنْ نَفسِهِ الطَّمعُ، ولَمْ تَستَيقِظْ في جوانِحِهِ الأَهواءُ والشَّهواتُ، ولَمْ يَتَصابَ في حياةِ المُجونِ مُكبّاً عَلى اللَّهوِ والشَّرابِ وحَولَهُ الجواري والقيانُ كَما كانَ يَفعلُ أَقرانُهُ وأَترابُهُ، وإِنَّما كانَ يَطلبُ في نَفسِهِ المعالي بِتواضُعِهِ وخَفضِ جَناحِهِ للضَّعيفِ والفقيرِ.

وبِاختصارٍ، كانَ أَبيَّ النَّفسِ، نبيهَ العقلِ، واسعَ القُوَّةِ، عَظيمَ الصَّبرِ، مِقداماً مِغواراً، لا يَجبنُ ولا يَضعفُ وهوَ يُجابِهُ الإِعصارَ والموتَ المُحدقَ بِهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ عَلى أَسنَّةِ السُّيوفِ عندما تَهيجُ الحربُ، وتَموجُ بِالدِّماءِ.

وإلى جانبِ هذا، كانَ العاشِقَ المُتَيَّمَ الَّذِي يَأخذُهُ الوَجدُ، وتَغلُبُهُ العَبراتُ، إذا ما هَاجَ الحُبُّ في خَفقاتِ قَلبِهِ مِنْ ذِكرَى أَو طيفِ الحبيبِ يَمرُّ بِخاطِرِهِ.

إِنَّهُ فارسُ الفُرسانِ، عنترةُ بنُ شَدَّادٍ، شاعرُ الحبِّ والبُطولةِ، والحربِ والغرامِ، فهيَّا معاً نُبادرُ الدُّخولَ في أَجواءِ حُبِّهِ وبُطولَتِهِ في لَحظاتٍ مُترَعةٍ بِغبطَةِ الحُبِّ والتَّقديرِ والإعجابِ.

❋ ❋ ❋

يَرجعُ أَصلُ ونَسبُ «عنترةَ بنِ شَدَّادٍ بنِ عمرو بنِ مالكٍ العَبسيِّ» إلى غَطفانَ مِنَ العربِ مِنْ جهةِ أَبيهِ، وإلى الأَعاجمِ الأَحباشِ مِنْ جهةِ أُمِّهِ، فَهوَ يَجمعُ بينَ العرقِ العربيِّ الأَصلِ مِنْ جانبِ أَبيهِ، وبينَ العرقِ الأَسودِ الحبشيِّ مِنْ جانبِ أُمِّهِ، أَخذَ مِنْ أَبيهِ الدَّمَ والفصاحةَ واللِّسانَ العربيَّ المُبينَ، وأَخذَ مِنْ أُمِّهِ لونَ البُشرَةِ المائِلةِ إلى السَّوادِ.

ولِدَ «عنترةُ» سَنةَ (525) ميلاديَّةً في منطقَةِ نَجدٍ، الَّتِي سَكَنَتْها وأَقامَتْ فيها القَبائِلُ العربيَّةُ المُضريَّةُ مِنْ غَطفانَ الَّتِي نَزحَتْ مِنْ بِلادِ اليَمنِ مُنذُ القَديمِ، وولِدَ في قَبيلةِ عَبسٍ مِنها.

وكانَ أَبوهُ «عمرو بنُ مالكٍ بنِ شَداد» مِنْ أَشرافِ قَبيلَةِ عَبسٍ، ويُطلقُ عليهِ اسمُ جَدِّهِ شَدَّاد، أَمَّا أُمُّهُ فَكانَتْ حَبشيَّةَ الأَصلِ، سَوداءَ البُشرةِ، سَباها أَبوهُ في إِحدَى حُروبِهِ وغاراتِهِ، فَصارَتْ عِندَهُ أَمَةً، فَتزوَّجَها شَدَّادٌ فَأَنجَبَتْ لَهُ «عنترَةَ».

وكانَ مِنْ عادةِ العربِ في الجاهليَّةِ قبلَ الإسلامِ أَنْ يُصبِحَ ابنُ الأَمَةِ عبداً مُسترقاً،

ولا يُعاملُ مُعاملَةَ ابنِ الحُرَّةِ، وفي الغالبِ كانَ لا يُلحَقُ بِنسبِ أَبيهِ، وإِنَّما يُلحقُ بِنَسبِ أُمِّهِ، فَيُقالُ لَهُ: ابْنُ الأَمَةِ فُلانة، وكانَ اسمُ أُمِّ عنترَةَ «زَبيبَة»، ولِهذا كانَ يُطلقُ عَلى عَنترةَ في صغرِهِ ابنُ زَبيبَة.

كَما كانَ لِعنترَةَ إِخوَةٌ مِنْ أُمِّهِ عَبيدٌ، ولَمْ يَكُنْ أَبوهُ شَدَّادٌ يَعزمُ عَلى إِلحاقِ ابنِهِ بِنَسبِهِ بِسببِ سَوادِ لونِهِ، ولِكونِهِ ابن أَمَةٍ، فَكانَ عنترةُ مَعزولَ النَّسبِ وغَريبَهُ.

ولِهذا كانتِ العربُ تَقولُ: أَغرِبَةُ العربِ ثلاثةٌ، عَنترةُ وأُمُّهُ زَبيبَة، وخفافُ بنُ عُميرٍ الشَّريديُّ وأُمُّهُ نَدبَةُ ـ وإِليها يُنسبُ. وكانتْ سوداءَ كَأُمِّ عنترةَ ـ والسُّليكُ بنُ عُميرٍ السَّعديُّ مِنْ بَني سَعدٍ وأُمُّهُ سَلَكَةُ ـ وإِليها يُنسبُ وكانَتْ سوداءَ أَيضاً ـ.

عاشَ عنترةُ في بيتِ أَبيهِ كما يَعيشُ العبدُ، يَرعى إِبلَ وخيلَ أَبيهِ في بوادِي نجدٍ. وعَملُهُ كَراعٍ يَجوبُ القفارَ والوديانَ والجبالَ أَكسَبَهُ صَفاءَ الذِّهنِ، وقُوَّةَ البنيَةِ، ورِقَّةَ العاطفةِ، وسِعةَ الخيالِ، وفِطنةَ العقلِ، وسَكينةَ النَّفسِ، وهدوءَ البالِ، وكذلِكَ أَيضاً قدرةَ التَّحمُّلِ والتَّغلُّبِ عَلى المصاعبِ والأَهوالِ.

وتَمكَّنَ عنترةُ منذُ صِغرِهِ مِنَ الاختلاطِ بِأبناءِ البَوادي مِنَ العربانِ الَّذِينَ نَشؤوا على الفَصاحةِ والمنطقِ، فَصارَ فَصيحَ اللِّسانِ، مُتَمكِّناً مِنَ اللُّغةِ، هاوياً لِقرضِ الشِّعْرِ عَلى السَّجيَّةِ.

وعندما أَصبحَ عنترةُ شاباً، واشتَدَّ ساعدُهُ، لَمْ يَكُنْ في قبيلةِ عبسٍ كُلِّها، مَنْ يَجرؤُ على نزالِهِ أَو مُجاراتِهِ أَو التَّحرُّشِ بِهِ لا في اليَدِ ولا في اللِّسانِ، إِذْ كانَ عنترةُ فَصيحاً

مُتكلِّماً، وخَطيباً مُفَوَّهاً، وشاعراً حَصيفاً، يَأتي منهُ الشِّعرُ عَلى السَّجيَّةِ لَيِّناً سَهلاً خالياً مِنَ التَّعقيدِ والإبهامِ.

لَكنَّهُ، كانَ ما يزالُ يُعاني مِنْ قُيودِ الرِّقِّ والعبوديَّةِ الَّتي تُكَبِّلُهُ، وكانَ كُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَنالَ حُريَّتَهُ وأَنْ يُلحقَهُ أَبوهُ بِنَسبِهِ. ومِنَ المعروفِ أَنَّ «عنترَةَ» كانَ مُغرَماً بِابنَةِ عَمِّهِ «عبلةَ»، فَهامَ بِها حُبّاً منذُ شَبابِهِ الأَوَّلِ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَلبَثْ «عنترةُ» طويلاً بَعدَ بلوغِهِ سنَّ الشَّبابِ مِنْ نَيلِ حُريَّتِهِ، وإلحاقِهِ بِنَسبِ أَبيهِ، وكانَ سَببُ ذَلكَ أَنَّ بعضَ أَحياءِ العربِ أَغاروا عَلى قَومِ عَبسٍ، فَنالوا مِنهُمْ، فَتبِعَهُمُ العبسيونَ وجَرَتْ معركةٌ بينَ الطَّرفينِ، وكانَ عنترَةُ قائِماً فيهِمْ وحاضِراً، لَكنَّهُ لَمْ يَلحَقْ بِالقِتالِ، فقالَ لَهُ أَبوهُ: كُرْ، يا عنترةُ؟ أَي: اِلحَقْ بِالقَومِ وشارِكْ في القِتالِ، لَكِنَّ عنترَةَ أَجابَهُ قائِلاً:

«إِنَّ العبدَ لا يُحسِنُ الكَرَّ، إِنَّما يُحسِنُ الحِلابَ والصَّرَّ[1]».

فَقالَ لَهُ أَبوهُ: كُرْ، وأنتَ حُرٌّ؟

فَكرَّ عنترَةُ وهوَ يَقولُ:

كُـلُّ امـرئٍ يَـحـمـي حُـرَّهُ أَسـودَهُ وأَحـمـرَهُ

والـواردَاتِ مِـشْـفَـرَهُ

---

(1) الحلاب والصر: أي حلبُ الإبلِ وعلفُها.

وقاتلَ يَومئذٍ فَأَبلَى بَلاءً حَسناً، وقَهرَ العدوَّ، وأَنقذَ ما أَصابَهُ المُغيرونَ مِنْ إِبلٍ وأَموالٍ مِنْ بَني عَبسٍ ورَدَّها إِلى قَومِهِ، فَفرحَ بِهِ يَومَها أَبوهُ كثيراً، ومَنَحَهُ حُرِّيَّتَهُ، وأَلحقَهُ بِنَسبِهِ، وشاعَ في جميعِ مضاربِ بَني عَبسٍ أَنَّ «عنترةَ» بَطلُها اللَّامعُ، وسَيفُها القاطعُ.

وبَعدَ أَنْ عُرفَ «عنترةُ» بينَ قَومِهِ بِالشَّجاعةِ والإِقدامِ، وقُوَّةِ البأسِ، أُسندَتْ إِليهِ قِيادةُ الكتائِبِ في الحروبِ والغزواتِ، وعندما دارتْ رَحَى الحربِ بينَ عبسٍ وذبيانَ وهيَ ما تُعرفُ بِحربِ «داحس والغبراءِ» أَبلَى فيها بَلاءً حَسناً، وراحَ صيتُهُ يَملأُ الأَسماعَ، وصارتْ شَجاعتُهُ وقُوَّتُهُ حديثَ كُلِّ لِسانٍ بينَ العربِ، كما صارتْ قَصائِدُهُ في وَصفِ الحربِ ملحمةً شعريَّةً يَتفاخرُ بِها بَنو عبسٍ عَلى سِواهُمْ مِنَ العربِ.

وحربُ «داحس والغبراءِ» كانَ الباعثُ عليها ـ كما هو معروفٌ ـ سِباقاً مِنْ مُراهنَةٍ بينَ سَيِّدِ عبسٍ «قَيس بنِ زُهيرٍ»، وسَيِّدِ ذبيانَ «حُذيفةَ بنِ بَدرٍ» لِلأَوَّلِ فَرسٌ اسمُهُ «داحس» ولِلثَّاني حِجرٌ اسمُها «الغبراءُ»، فَأَمرَ «حذيفةُ» فَكمِنَ أَشخاصٌ لِيَردوا «داحس» عَنِ الغايَةِ فَتسبِقَ «الغبراءَ»، وهكذا كانَ.

فَطالبَ حُذيفةُ بِحقِّ السِّباقِ مئةَ ناقة فرفضَ قيس مُحتجّاً عَلى ذَلكَ أَنَّ السَّبقَ لِفرسِهِ، فَنَشبَتْ بينَ الطَّرفينِ الحربُ المعروفَةُ بِحربِ السِّباقِ أَو حربِ «داحس والغبراءِ»، فَتحالفَتْ قبائِلُ أَسدٍ معَ ذبيان ضِدَّ عَبسٍ، وقَبائِلُ بَني عامرٍ معَ عَبسٍ ضدَّ ذبيان. وكانَ مِنْ أَبطالِ هذِهِ الحربِ «عنترةُ بنُ شَدَّاد».

دَفَعَ «عنترةُ» عَنْ قَبيلتِهِ بِشعرِهِ، كما ذادَ عنها بِسيفِهِ، فَراحَ يَصفُ قُوَّةَ عبسٍ، ويُمجِّدُ

إقدامَها عَلى الحربِ، ويُصوِّرُ انهزامَ فُلولِ داحس وحُلفائِها مِنْ ساحةِ المعرَكةِ أَمامَ قوَّةِ وجبروتِ عَبسٍ بِأسلوبٍ فيهِ الفخرُ والحماسُ، فَقالَ:

سَائِلْ عُميرةَ حَيثُ حَلَّتْ جَمعُها ... عِندَ الحروبِ بِأَيِّ حَيٍّ تُلحقُ
أَبِحيِّ قيسٍ؟ أَمْ بِعذرةَ بَعدما ... رُفِعَ اللِّواءُ لَهُ ويَئِسَ المُلحقُ
واسأَلْ حُذيفَةَ حينَ أَرَّشَ بينَنا ... حَرباً ذَوائِبُها بِموتٍ تَخفِقُ
فَلتَعلمُنَّ إِذا التَقَتْ فُرسانُنا ... بِلِوَى النُّجيرَةِ أَنَّ ظَنَّكَ أَحمقُ

ولَكِنْ، تِلكَ البُطولَةُ والدِّفاعُ المُستَميتُ عَنْ قومِهِ، ما كانتْ لِتُمحي مَشاعرَ الحقدِ والحسدِ مِنْ قُلوبِ بَعضِ أَبناءِ قَومِهِ، فَكانوا كثيراً ما يُعيِّرونَهُ بِسوادِ بُشرتِهِ. فَكانَ يَردُّ عليهِمْ بِكُلِّ هدوءٍ وأَناةٍ وصبرٍ مُفتخراً بِكونِهِ أَسود، ومُتغنيّاً بِبُطولاتِهِ، فَيقولُ:

وأَنا الأَسودُ والعبدُ الَّذِي ... يَقصدُ الخيلَ إِذا النَّقعُ[1] ارْتَفَعْ
نسبَتي سَيفي ورُمحي وهُما ... يُؤنساني كُلَّما اشتَدَّ الفَزعْ

❋ ❋ ❋

أَحبَّ عنترةُ ابْنةَ عَمِّهِ «عبلةَ» حُبّاً والِهاً ومُخلصاً، وقَدْ عانَى عنترةُ كثيراً مِنْ هذا الحُبِّ الَّذِي كانَ صَداهُ في نَفسِهِ لَهُ وَقعٌ أَشدّ مِنْ وَقعِ الموتِ إِذا اشتدَّ القِتالُ في ساحاتِ المعركةِ، وقَدْ أَصابَهُ مِنْ هذا الحُبِّ العُذريِّ جراحاتٌ وصُدودٌ نَقشَتْ عَلى أَوتارِ قلبِهِ

(1) النقع: الغبار الساطع، إشارة لشدة الحرب.

العذابَ والآلامَ المُستديمةَ، حيثُ كانتْ «عَبلَةُ» تنفرُ منهُ بِسبَبِ سَوادِهِ ولِكونِهِ عبداً، فَقضَى ردحاً مِنْ عمرِهِ وهوَ يُحاولُ اسْترضاءَها، مُذَكِّراً لَها بِمآثِرِهِ العظيمةِ مِنْ شجاعةٍ وإباءٍ وكرمٍ ومروءةٍ، فَيقولُ لَها:

هَلا سَألتِ الخيلَ يا ابْنةَ مالِكِ إنْ كُنتِ جاهلةً بِما لَمْ تُعلمي
يُخبركِ مَنْ شهدَ الوقيعةَ أَنَّني أَغشَى الوَغَى وأَعفُّ عندَ المَغنمِ

وتارةً يَقولُ لَها:

أَثني عليَّ بِما عَلمتِ فَإِنَّني سَهلٌ مُخالقَتي إذا لَمْ أُظلمِ
فَإِذا ظُلمتُ فَإِنَّ ظُلمي باسلٌ مُرٌّ مَذاقَتهُ كطعمِ العَلقمِ

كما ذَكَّرها بِأَنَّهُ إذا لَهَا أو شربَ الخمرَ فَإِنَّهُ يُحسنُ استخدامَ المالِ، وإذا دَعاهُ داعي النَّدى والعطاءِ، أَجابَ بقلبٍ رَحبٍ ويَدٍ مبسوطةٍ:

فَإِذا شربتُ فَإِنَّني مُستهلكٌ مالي وعرضي وافرٌ لَمْ يُكلمِ
وإذا صَحوتُ فَما أقصرُ عَنْ نَدَى[1] وكَما علمتِ شَمائلي وتَكرُّمي

هذا، إلى جانبِ افتخارِهِ بِبعضِ الشَّمائِلِ الأُخرَى الَّتِي تُمليها عليهِ رُجولتُهُ وعِفَّتُهُ، وأَخلاقُهُ العربيَّةُ الأَصيلةُ، لأَنَّهُ كانَ يُعيَّرُ بِعدمِ أَصلهِ العربيِّ مِنْ جهةِ أُمِّهِ، فَمثلاً: هوَ لا يَزورُ امرأةً إلَّا وزَوجُها حاضِرٌ:

---

(1) الندى: الجود والسخاء والخير.

أَغشَى فَتاةَ الحَيِّ عندَ حَليلِها وإذا غَزا في الجيشِ لا أَغشاها

وهوَ، إنْ بَدتْ جارَتُهُ، غَضَّ طَرفَهُ:

وأَغضُّ طَرفي ما بَدَتْ لي جارتي حَتَّى يُواري جارتي مَأواها

وهو يَملكُ زمامَ نَفسِهِ لا يَتبعُ هواها:

إِني امرؤٌ سَمْحُ الخليقَةِ ماجدٌ لا أَتبعُ النَّفسَ اللَّجوجَ هَواها

❋ ❋ ❋

عاشَ «عنترة» تسعينَ سنةً، قَضَى أَغلبَها مُمتطياً صَهوةَ جوادِهِ «الأَبجرِ» يَسعَى في المعالي مِنْ غيرِ تَرفٍ ولا بَطرٍ، وهوَ يَغزو ويُقاتلُ في سبيلِ قَومِهِ وقبيلتِهِ، ومعَ ذَلكَ لَمْ يَلقَ مِنْ قَومِهِ الحفاوةَ الَّتِي تَليقُ بِهِ، أَو تَفي بِالجهودِ العظيمةِ الَّتِي بَذلَها مِنْ أَجلِ رِفعةِ قبيلَتِهِ، وسَلامةِ بَني قَومِهِ.

بيدَ أَنَّ التَّاريخَ، والوجدانَ العربيَّ، قَدْ أَنصفاهُ مِنْ جُحودِ أَسيادِ قومِهِ لَهُ، فَكانَ عبرَ التَّاريخِ وما يَزالُ مِثالاً أَعْلى لِلفارسِ المُناضِلِ، ولِلشَّاعرِ الفَذِّ المُخلصِ لِقَضيَّتِهِ ولِمبادئِهِ ولانتمائِهِ، ولِحُبِّهِ العُذريِّ أَيضاً.

تُوُفِّيَ «عنترة» سنةَ (615) ميلاديَّةً، وعَلى الأَغلبِ أَنَّهُ ماتَ قتيلاً في إِحدَى غاراتِهِ وحروبِهِ وقَدْ بَلغَ مِنَ العمرِ عتياً. فلقَدِ اختلفَتِ الرِّواياتُ في تَحديدِ هويَّةِ قاتلِهِ: فَيقالُ: إِنَّ القاتِلَ هوَ «وِزرُ بنُ جابرٍ»، وقيلَ: إِنَّهُ «جبَّارُ بنُ عمرو الطَّائيُّ»، ويُقالُ: إِنَّهُ «أَسدُ بنُ ناعصةَ» وهوَ شاعرٌ وفارسٌ مِنْ بَني أَسدٍ حُلفاءِ قبيلةِ ذبيانَ.

قالَ «أَسدٌ» بَعدَ قتلِهِ «عنترةَ» شعراً يَنفسُ فيهِ تَشفيهِ وحقدَهُ، مُظهراً شَماتَتَهُ لِقتلِ شَيخٍ هرمٍ ناهزَ التِّسعينَ مِنْ عُمرِهِ:

أَنا أَسدُ بنُ ناعصةَ بنُ عمرو لِعبدِ الجِنِّ خيرِ أَبٍ نَسيبُ
قَتلتُ مُجاهداً وبَني أَبيهِ وعنترةَ الفَوارسِ قَدْ قَتلتُ
فَإِنْ أَشفقَتْ بَنو عبْسٍ عليهِ فَإِنِّي ويبُ غيرِكَ ما أَشفقَتُ

وهكذا ماتَ بَطلُ الأَبطالِ «عنترةُ بنُ شَدَّادٍ»، ولَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنيا مَنْ كانَ يُحبُّها ويَهواها، ورغمَ عروضِ الزَّواجِ الَّتِي انهالَتْ عليهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُ لِيَرضَى زوجةً غيرَ «عبلةَ» حبيبَتِهِ. قالَ يُخبرُ عَنْ ذَلكَ:

ولَئِنْ سَأَلتَ بِذاكَ عبلةَ خَبَّرَتْ أَنْ لا أُريدُ مِنَ النِّساءِ سِواها

خلَّدَ لنا التَّاريخُ مِنْ شعرِ «عنترَةَ» ديواناً يَضمُّ بينَ دَفَّتيهِ (1500) بيتاً مِنَ الشِّعْرِ يَدورُ أَغلبُهُ في موضوعِ الحماسِ والفخرِ والغزلِ العفيفِ، والحبِّ العُذريِّ، وفيهِ قليلٌ مِنَ المدحِ والرِّثاءِ، وأَشهرُ قَصائِدِهِ المُعلَّقةُ الَّتِي مَطلعُها الأَبيات التَّالية:

هَلْ غادرَ الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ[1] أَمْ هَلْ عَرفتَ الدَّارَ بَعدَ تَوهُّمِ
يا دارَ عبلةَ بِالجواءِ تَكلَّمي وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي
فَوقفتُ فيها ناقَتي وكَأَنَّها فَدنٌ[2] لِأَقضِيَ حاجةَ المُتَلوِّمِ

(1) مُتَرَدَّم: الموضع الذي يُرقّع.
(2) فَدنٌ: قصر مشيد، ويقصد بها دار عبلة.

وتَحلُّ عبلةُ بِالجَواءِ وأَهلُنا بِالحَزنِ فَالصّمانِ فَالمُتثلّمِ[1]

هذا وقَدْ كانَ النَّبيُّ الأَعظمُ ﷺ يُنشِدُ بيتاً مِنْ شعرِ «عنترة» ويَودُّ لو رآهُ، وهوَ:

ولَقَدْ أَبِيتُ على الطَّوَى[2] وأَظلُّهُ حَتَّى أَنالَ بِهِ كريمَ المَأكلِ

ثُمَ يَقولُ ﷺ: «ما وُصِفَ لي أَعرابيٌّ قَطُّ، فَأَحبَبتُ أَنْ أَراهُ إِلَّا عنترة».

وهذا البيتُ، مِنْ قَصيدةٍ طويلةٍ يَقولُ في مطلعِها:

إِنِّي امرؤٌ مِنْ خيرِ عبسٍ مَنصباً شَطري وأَحمي سائِري بِالمُنصُلِ[3]

والخيلُ تَعلمُ والفوارسُ أَنَّني فَرَّقتُ جَمعهُمْ بِطعنةِ فيصلِ[4]

وهكذا، كانَ عنترةُ شاعرُ البطولةِ والحُبِّ يُضربُ فيهِ المثلُ في البطولةِ والفداءِ. ذكرَ «الجاحظُ» في «الرَّسائِلِ»: أَنَّ أبناءَ الزنجيّاتِ مِنَ العربِ الَّذِينَ نزعوا إِلى البسالَةِ والأَنفةِ «خَفافُ بنُ نُدبَةَ، وعباسُ بنُ مرداسٍ، وابْنَا شَدَّادٍ: عنترةُ الفَوارسِ وأخوهُ هُراسةُ، وسُليكُ بنُ السَّلكةِ».

ثُمَّ يَقولُ الجاحظُ عنهُمْ:

فَهؤلاءِ أُسُدُ الرِّجالِ، وأَشدُّهُمْ قُلوباً، وأَشجعُهُمْ بَأساً، وبِهِمْ يُضربُ المَثلُ.

---

(1) بالحَزن فَالصّمانِ فَالمُتثلّم: يقصد بها أماكن ومواضع في الأرض عرفتها العرب.

(2) الطوى: الجوع.

(3) المنصل: السيف.

(4) الفيصل: السيف القاطع.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا جمعَ الشَّاعِرُ عنترةُ بنُ شَدَّادِ؟

2 ـ كيفَ قابَلَ عنترةُ بَلْواءَ الحياةِ، وكيدَ النَّاسِ لهُ؟

3 ـ ما هيَ الصِّفاتُ الَّتي تَمتَّعَ بِها عنترةُ رغمَ فقرِهِ؟

4 ـ إِلى مَنْ يَرجعُ نسبُ عنترةَ مِن جهةِ أبيهِ ومِنْ جهةِ أمِّهِ؟

5 ـ لِماذا لَمْ يُلحقْ عنترةُ بِنسبِ أبيهِ في بداية عمره؟

6 ـ كيفَ قابلتْ عبلةُ حُبَّ عنترةَ لها، ولِماذا؟

7 ـ ماذا قالَ الرَّسولُ الكريمُ ﷺ في حَقِّ عنترةَ؟

عَمْرُو بنُ كلثومٍ
الشَّاعرُ الثَّائرُ
(. . . - 600م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ، قِصَّةَ شاعرٍ مِنْ شُعراءِ العربِ المُخضرمينَ، مِنَ الطَّبقةِ الأُولَى مِنْ شُعراءِ الجاهليَّةِ الَّذِينَ تَغَنَّوا بِالأَمجادِ، وتَفاخروا بِالبُطولاتِ، وهَبُّوا لِلدِّفاعِ والذَّودِ عَنْ شَرفِ وكرامةِ قبيلَتِهِمْ.

وهذا الشَّاعِرُ الَّذِي نَحنُ بِصَدَدِهِ الآنَ، شاعرٌ حَلَّقَ وتَسامَى في سَماءِ الشِّعْرِ. وكانَ شعرُهُ لَهُ أَهميَّةٌ عَظيمةٌ وجَليلةٌ عندَ أَبناءِ قَومِهِ وقَبيلتِهِ، فَيَتَغنَّونَ بِهِ رِجالاً ونساءً، كباراً وصِغاراً، ويُردِّدونَهُ كَترديدِ الشُّعوبِ لِنَشيدِها الوَطنيِّ.

كانَ فارساً مغواراً، ومُقاتِلاً مِقداماً، يَذودُ عَنْ قَومِهِ بِسَيفِهِ كما يَذودُ عنها بِشعرِهِ، وخَلَّدَ لَهُ التَّاريخُ مَواقفَ مُشرِّفةً مِنْ هذا القَبيلِ.

ولَقدْ دَفَعتْهُ غيرَتُهُ، وشَجاعتُهُ، وثَورتُهُ، وجراءَتُهُ عَلى قَتلِ أَعظمِ مُلوكِ العربِ المُستَبدينَ والمُتغطرسينَ مِمَّنْ عاثوا في علاقاتِ القبائِلِ العربيَّةِ معَ بَعضِها فَساداً وتَخريباً، وكانَ أَشدُّ حُكَّامِهِمْ بَطشاً ونُفوذاً وسيطرةً. قَتلَهُ الشَّاعِرُ في عقرِ دارِهِ، وداخلَ أَروقَةِ مُلكِهِ، بينَ جُنودِهِ وحُرَّاسِهِ وحاشِيَتِهِ؛ انْتصاراً لِصَيحَةِ حَقٍّ دَوَّتْ في مِسامعِهِ، ولِصرخَةِ عِزَّةٍ وكبرياء أَطلَقَتْها أُمُّهُ فَهَزَّتْ أَركانَ قَلبِهِ، وأَضرمَتِ الحميَّةَ والعَصبيَّةَ في أَقطارِ نَفسِهِ، فَهبَّ مُستَجيباً لَها لا تَأخذُهُ في الحقِّ لَومَةَ لائِمٍ، وانقَضَّ كاللَّيثِ الهائِجِ عَلى وَثنِ الظُّلمِ والاستبدادِ والعَنجهيَّةِ، ومَزَّقَهُ بِأَنيابِ جَسارَتِهِ تَمزيقاً جَعَلَ مِنهُ أُضحوكَةَ التَّاريخِ، ومِثالَ اعتبارٍ لِمَنْ أَبطرَهُ مُلكَهُ، بَعدَ أَنْ أَخذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثمِ، وأَرادَ أَنْ يَنالَ مِنَ كرامةِ البَشرِ ـ ولا سيَّما ذَوي الأَصلِ والحسَبِ والنَّسبِ منهُمْ ـ بَعدما أُوتيَ مِنَ المُلكِ والقُوَّةِ ما لَمْ يَبقَ مَعهُ في نَفسِهِ مِنْ مظاهرِ التَّرفِ والزّهوِّ إِلَّا أَنْ يَتَسَلَّى ويَعبَثَ في حياةِ النَّاسِ تَنفيساً لِحقدٍ دفينٍ في قَلبِهِ، وتَحقيقاً لِما لَمْ تُحقِّقْهُ القُوَّةُ والسَّيطرةُ مِنْ إذلالِ البَشرِ واستعبادِهِمْ.

أَجل، لَقَدْ كانَ هذا الشَّاعِرُ عَظيمَ قَومِهِ، وشاعرَهُمْ وحَكيمَهُمْ، والصَّوتَ المُدافعَ عَنهُمْ في المَلمَّاتِ والمُحاكماتِ، بَلْ كانَ بَطلَهُمُ الرَّمزَ إِذا تفاخرَتِ العربُ بِأَبطالِها، وقَبيلَتُهُ وَقتئذٍ أَعزُّ قَبائِلِ العربِ وأَكثرُهُمُ انتشاراً ونَفيراً في أَرضِ العربِ.

وهوَ شاعرٌ طَغَتْ عليهِ العاطفَةُ الثَّائِرةُ الجامحَةُ، وسَيطرَتْ على عَقلِهِ وشعرِهِ، فَانْطلقَ تَحدوهُ ثَورةٌ عارمةٌ، وخيالٌ جامحٌ، وكبرياء عارمٌ، يَقذفُ ما جاشَ في قَلبِهِ، وما دارَ في وجدانِهِ مِنْ غيرَةٍ وحميَّةٍ عَصبيَّةٍ، في قوالبَ شعريَّةٍ تُظهرُ اعتزازَهُ ومُفاخرَتَهُ بِقومِهِ بأسلوبٍ

يَزدانُ بِالفَصاحةِ والبَلاغَةِ وقُوَّةِ الأَلفاظِ والتَّراكيبِ، ورَوعَةِ الصُّورِ والتَّمثيلِ المُستوحَى مِنَ الحياةِ القَبليَّةِ البَدويَّةِ.

وهوَ بِهذا، استَحقَّ أَنْ يُسمَّى شاعرَ الثَّورةِ التَّغلبيَّةِ وقائِدَها، تِلكَ الثَّورَةُ الَّتي هَبَّتْ في جزيرَةِ العربِ بَعدَ أَنْ لَحقَ أَهلَها الظُّلمُ والهوانُ مِنَ الملكِ المُتغطرسِ الحاقدِ الجبَّارِ، فَشغلَتْ بِعنفوانِها واندفاعِها العربَ كافَّةً ردحاً طَويلاً مِنَ الزَّمنِ.

نَعم، إِنَّهُ الشَّاعِرُ الثَّائِرُ «عمرو بنُ كلثوم»، هذا الَّذِي شَغلَ النَّاسَ بِشعرِهِ وبُطولَتِهِ ومُفاخرتِهِ بِقومِهِ، فَتعالوا معاً لِنقرأَ سُطوراً مِنْ صَفحاتِ حياتِهِ مِمَّا اخترناهُ لَكُمْ في هَذِهِ القصَّةِ عَنْ تَرجمةِ سيرَتِهِ كما رَواها المُؤرِّخونَ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَذكرِ المُؤرِّخونَ شَيئاً عَنْ ولادةِ الشَّاعرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ»، أَو عَنْ نَشأَتِهِ، ورُبَّما كانَ هذا الصَّمتُ والإِغفالُ في ذَلكَ لا يَعودُ إِلى تَقصيرٍ أَو سَهوٍ مِنْ قِبلِ المُؤرِّخينَ، وإِنَّما عَلى الأَرجحِ يَتعلَّقُ بِالإِرهاصاتِ الَّتِي رافَقَتْ حياتَهُ بَعدَ قَتلِهِ لِلملكِ «عمرو بنِ هندٍ»، ومُلاحقَةِ المناذرَةِ لَهُ.

يَرْجعُ أَصلُ الشَّاعرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ» إِلى قَبيلةِ «عتابٍ» التَّغلبيَّةِ، وكانَ «كُلثومٌ» أَبوهُ مِنْ أَشرافِ قَومِهِ، وكانَ سَيِّدَهُمُ الَّذِي بيدِهِ مقاليدُ الأُمورِ العامَّةِ في القبيلةِ.

أَمَّا أُمُّهُ، فَهيَ مِنْ أَشرافِ العربِ، ومِنْ عليَةِ قَومِها، فَهيَ «ليلى» بِنتُ الشَّاعرِ المُهلهلِ

المُلَّقبِ بِـ «الزِّيرِ سالمٍ» أخي الملكِ المَشهورِ «كُليبٍ» الَّذِي وَقعتْ لأَجلِ مقتلِهِ حربُ «البَسوسِ» بينَ بَكرٍ وتغلبَ، ودامَتْ أَربعينَ عاماً.

نَشأَ «عمرو بنُ كلثومٍ» وتَرعرَعَ في مَضاربِ قَومِهِ بِمنطقَةِ نَجدٍ، وتَرَبَّى في بيتِ عزٍّ وسُؤدُدٍ، فَرعاهُ والداهُ خيرَ رِعايَةٍ، وتَعوَّدَ في كنفِهِما عَلَى الأَخلاقِ العربيَّةِ الحميدةِ الَّتِي أَلفَها العربُ في صَحرائِهِمْ وبواديهِمْ وحواضرِهِمْ، ودرجَ منذُ صغرِهِ، عَلى حُبِّ الشِّعْرِ والفُروسيَّةِ، وعَلى تَعلُّمِ فنونِ الحربِ والقِتالِ في مَضاربِ قَومِهِ مُتَنقِّلاً في البوادي والسُّهولِ والوديانِ، حيثُ كانتْ قَبيلةُ تَغلبَ تَنتشرُ بِكثرَةٍ في الجزيرةِ العربيَّةِ وما جاورَها مِنْ بَوادٍ وحواضرَ، وكانتْ مِنْ أَعزِّ القَبائِلِ العربيَّةِ، ومِنْ أَكثرِها تَعداداً بَشريّاً، حتَّى قيلَ: «لَو أَبطأَ الإِسلامُ، لأَكلَتْ بَنو تَغلبَ النَّاسَ». وهذا كنايَةٌ عَنِ القوَّةِ والنُّفوذِ، وكثرةِ العددِ، وعظمةِ الجانبِ بينَ القَبائِلِ العربيَّةِ.

كانَ نبوغُ «عمرو بنِ كُلثومٍ» الفكريُّ والجسديُّ والعقليُّ مُبَكِّراً جداً، فَقدْ خلبَ بِذكائِهِ ونَجابَتِهِ، وبَفخرِهِ واعتزازِهِ بِقبيلتِهِ العقولَ والأَلبابَ، وصارَ سَيِّداً لِقومِهِ وهوَ لَمْ يَزلْ في الخامسةَ عشرةَ مِنْ عُمرِهِ.

وممَّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ «عمرو بنَ كُلثومٍ» قَدْ تَأَثَّرَ كغيرِهِ مِنْ شُعراءِ العربِ الَّذِينَ عاشوا ونَبغوا في تلكَ الحقبةِ بِحكمةِ وشعرِ الشَّاعرِ «أَوسِ بنِ حجرٍ التَّميميِّ» الَّذِي يُعتبرُ مُؤسِّساً لأَوَّلِ مدرسَةٍ شعريَّةٍ في تاريخِ العربِ، حيثُ كانَ شعرُهُ مشاعاً لِكُلِّ مُريدٍ، وكثيرٌ مِنْ شُعراءِ العربِ اقتفوا طريقَتَهُ، وقَلَّدوا أُسلوبَهُ في الوَصفِ والأَلفاظِ والتَّصويرِ.

حملَ «عمرو بنُ كلثوم» عَلى عاتقِهِ هُمومَ وتبعاتِ قيادةِ قَبيلَتِهِ، والذَّودَ عنها بِسيفِهِ ولسانِهِ في أَحرجِ الأَوقاتِ، وفي أَشدِّها قسوةً في العيشِ وطلبِ الأَمنِ والاستقرارِ، حيثُ كانتِ الحربُ ما تزالُ دائرةً بينَ بَكرٍ وتغلبَ فَكُتبَ لَهُ وَقتئذٍ أَنْ يَتسيَّدَ قبيلَتَهُ بعدَ وفاةِ والدِهِ «كُلثومٍ».

وكانَ «عمرو بنُ كلثوم» قَدْ شهدَ بَعضَ الوقائِعِ مِن تلكَ الحربِ الضَّروسِ في صغرِهِ، ورُبَّما خاضَ لُجَّةَ القِتالِ إِلى جانبِ أَبيهِ الَّذِي كانَ يَقودُ تَغلبَ فيهِ، ولهذا كانَ مُتمرِّساً على القتالِ والحربِ والإِقدامِ، وسِيَّاسيّاً مُحنَّكاً أَنوفاً عَزيزَ الجانبِ مُهاباً، مَسموعَ الكلمةِ مِنْ قبلِ قَومِهِ.

تَزوَّجَ «عمرو بنُ كلثوم» مِنْ فَتاةٍ جليلةٍ مِنْ قَومِهِ، وأَنجبَ منها أَولاداً وبَناتٍ، وكانَ مِنْ أَولادِهِ الشُّعراءُ والفُرسانُ، منهُمْ: «كُلثومُ بنُ عمرو» الشَّاعِرُ المعروفُ، كما كانَ لَهُ ابنةٌ اسمُها «نَوَّار».

❋ ❋ ❋

أُلقيَ إِلى «عمرو بنِ كُلثومٍ» ـ كما أَلمحنا سابقاً ـ قيادةَ زِمامِ الأُمورِ في قبيلتِهِ، ورَحَى الحربِ دائرةٌ بينَ قَبيلتِهِ وبينَ قَبيلةِ بكرٍ، وهيَ ما تُعرفُ بحربِ البَسوسِ.

وكانَ مِنْ خبرِ هذِهِ الحربِ أنَّ «كُليباً» أَخا الشَّاعرِ «المُهلهلِ»، وعَمَّ «ليلَى بنتِ المُهلهلِ» والدةِ «عمرو بنِ كُلثومٍ» كانَ ملكاً جبَّاراً مَزهواً بِنفسِهِ عَلى بَني بَكرٍ وتغلبَ معاً، فَتزوَّجَ مِن ابنةِ عَمِّهِ «الجليلَةِ» بِنتِ «مُرَّةَ بنِ شَيبانَ» سَيِّدِ بَكرٍ، وكانَ لِـ «مُرَّةَ» عشرةُ أَبناءٍ أَصغرُهُمْ «جَسَّاسٌ».

وحدثَ ذاتَ يَومٍ، أَنْ حرَّمَ «كُليبٌ» عَلى إبلِ قَومِهِ أَنْ تَرعَى في حِماه، وكانَ لِجَسَّاسٍ خالَةٌ اسمُها البَسوسُ، نَزلَتْ يَوماً عندَ ابنِ أُختِها «جَسَّاسٍ»، وكانَ لها ناقَةٌ، فَخرجَتِ النَّاقَةُ لِترعَى ودخلَتْ في حِمَى «كُليبٍ» واختلَطَتْ بِإبلِهِ. فَغضبَ الملكُ «كُليبٌ» وقامَ ورَمَى النَّاقةَ بِقوسِهِ فَقتلَها، فَلمَّا رأَتِ البَسوسُ ما حَلَّ بِناقَتِها صاحَتْ ووَلوَلَتْ. فَثارَتِ الحميَّةُ في نفسِ «جَسَّاسٍ» وحَنقَ لأَجلِ خالتِهِ، فَذهبَ وطَعنَ «كُليباً» بِرمحِهِ فَأَرداهُ قَتيلاً، فَهبَّ «المُهلهلُ» يَطلبُ ثأرَ أَخيهِ.

فَنشَبَتِ الحربُ بينَ بَكرٍ وتَغلبَ بِسَببِ ناقَةِ البَسوسِ، فَسمِّيَتْ بِحربِ البَسوسِ. ودامتْ هذِهِ الحربُ أَربعينَ عاماً، وأَكلَتِ الأَخضرَ واليابسَ بِالنِّسبَةِ لِلقَبيلتينِ معاً.

وبَعدَ موتِ «المُهلهلِ» تَولَّى قِيادةَ تَغلبَ «كُلثومٌ»، ثُمَّ بَعدَ موتِهِ كذلِكَ، تَولَّاها ابنُهُ «عمرو بنُ كُلثومٍ»، وفي عهدِهِ مَلَّتْ جُموعُ الطَّرفينِ مِنَ الحربِ ووَيلاتِها، وسَعَى الملكُ «المُنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ» ملكُ الحيرَةِ لِلإِصلاحِ بينَ الطَّرفينِ، فَرضيَ الطَّرفانِ بِهِ حكماً بينَهُما لِلفَصلِ في الدِّياتِ.

انتَدبَتْ قبيلَةُ تَغلبَ سَيِّدَها وشاعرَها «عمرو بنَ كُلثومٍ» مُحامياً ومُفاوضاً، وانتَدبَتْ قَبيلةُ بَكرٍ الشَّاعرَ والحكيمَ المعروفَ «الحارثَ بنَ حلزةَ» مُحامياً ومُفاوضاً، وفي مجلسِ الملكِ النُّعمانِ «المنذرِ بنِ ماءِ السَّماءِ» دارَ السِّجالُ بينَ الشَّاعرينِ. لَكنَّ «الحارثَ بنَ حلزةَ» كانَ شَيخاً وَقوراً جَليلاً، وحكيماً وداهيَةً، فَغلبَ بِخبرتِهِ الشَّاعرَ الشَّابَّ المُندفِعَ بِعاطفَتِهِ لِنصرَةِ قَومِهِ.

وحينَها حكمَ المُنذرُ لِصالِحِ بَكرٍ عَلى تَغلبَ في الدِّياتِ، ومِنْ ثمَّ، تَمَّ الصُّلحُ بينَ الطَّرفينِ، ولَكنَّ هذا الصُّلحَ لَمْ يُعجبِ الشَّاعرَ الثَّائِرَ، فَقبلَ بِهِ هوَ وقَومُهُ عَلى مَضضٍ.

❋ ❋ ❋

بعدَ أَنْ تَمَّ الصُّلحُ بينَ القَبيلتينِ، تُوفيَ ملكُ الحيرةِ «المُنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ» بعدَ أَنْ قَتلَهُ ملكُ الفُرسِ «كسرَى»، فَخلفَهُ ابنُهُ المُنذرُ الثَّاني «عمرو بنُ هندٍ» عَلى المُلكِ في الحيرةِ.

وكانَ «عمرو بنُ هندٍ» مَزهوّاً بِنفسِهِ، ومُعجباً بِقوَّتِهِ، وكثيراً ما كانَتْ تأخذُهُ العزَّةُ بِالإثمِ عَلى عادةِ أَبناءِ المُلوكِ والحكَّامِ الَّذِينَ يَتوارثونَ المُلكَ والحكمَ، ويَرثونَ مَعهُ صفاتِ الغَطرسَةِ والبَطرِ والغُرورِ، وقَهرِ النَّاسِ بِغيرِ حَقٍّ.

قالَ «عمرو بنُ هندٍ» يَوماً لِنُدمائِهِ: هَلْ تَعلمونَ أَحداً مِنَ العربِ تَأنَفُ أُمُّهُ مِنْ خدمَةِ أُمي؟

فَقالوا: نَعمْ، أُمُّ «عمرو بنِ كُلثومٍ».

فَقالَ لَهُمْ: ولِمَ؟

قَالوا: لأَنَّ أَباها «المُهلهِلُ» ربيعَةُ بنُ وائِلٍ، وعَمَّها «كُليبٌ» أَعزُّ العربِ، وبَعلَها «كُلثومٌ بنُ مالكٍ» أَفرسُ العربِ، وابنَها «عمرو بنُ كُلثومٍ» هوَ سَيِّدُ قَومِهِ.

فَأَرسلَ الملكُ «عمرو بنُ هندٍ» إِلى الشَّاعرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ» يَطلبُ منهُ زيارتَهُ بِصُحبَةِ أُمِّهِ «ليلَى بنتِ المُهلهِلِ»، وعندَ قدومِهِ طلبَ «عمرو بنُ هندٍ» مِنْ أُمِّهِ أَنْ تُنَحِّيَ الخدمَ، وتَستَخدمَ «ليلى بنتَ المُهلهِلِ» إِذا دَعاها بِالطَّبقِ.

فَدعا «عمرو بنُ هندٍ» بِمائِدةٍ عَزمَ إِليها أَشرافَ العربِ وفُضلاءَهُمْ، وكانَ «عمرو بنُ كُلثومٍ» حاضراً بَينَهُمْ، ثمَّ دَعا «عمرو بنُ هندٍ» بِالطَّبقِ، وعلى الفَورِ.

قالَتْ هندُ:

ناوليني، يا ليلَى ذَلكَ الطَّبقَ.

فَقالتْ لَها ليلى: لِتَقُمْ صاحبَةُ الحاجةِ إِلى حاجتِها.

فَأَعادَتْ عليها الطَّلبَ.

فصاحَتْ ليلَى بِأَعلى صوتِها: واذُلَّاهُ! يا لِتَغلبَ!

فَسَمعَها وَلدُها «عمرو بنُ كُلثومٍ» فَثارَ الدَّمُ في وَجهِهِ، وفارَتْ نَفسُهُ وماجَتْ بِالغيرَةِ والحميَّةِ، فَوثبَ إِلى سَيفٍ لِعمرو بنِ هندٍ كانَ مُعلَّقاً بِالرّواقِ، وليسَ هُناكَ سيفٌ غيرُهُ، فَضربَ بِهِ رأسَ الملكِ «عمرو بنَ هندٍ»، ثُمَّ نادَى في بَني تغلبَ الحاضرينَ معهُ، فَهبُّوا وسَاقوا نَجائبَهُ[1]، وساروا نَحوَ الجزيرةِ قاصدينَ مَضاربَهُمْ في نَجدٍ.

وهكذا قَضى الشَّاعِرُ «عمرو بنُ كُلثومٍ» عَلى الملكِ البَطرِ الَّذِي غَرَّتْهُ أَهواؤهُ، وأَرادَ أَنْ يُسخِّرَ مُلكَهُ وجَبروتَهُ في إِذلالِ الخلقِ، والتَّعالي عليهِمْ في الأَرضِ في مَوقفٍ غيرِ مُتكافئٍ مَعَ مَكانَتِهِ كَملكٍ مكَّنَهُ اللهُ عَلى النَّاسِ، وكذَلِكَ معَ ضُيوفِهِ ومَكانَتِهِمْ بينَ العربِ، ولَكِنَّهُ الحقدُ والبَطرُ والتَّعالي والغَدرُ.

فَمرحَى وأَلف مَرحَى نَزُفُّها لِلشَّاعرِ الثَّائِرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ» عبرَ التَّاريخِ الَّذِي أَزاحَ مِنْ

---

(1) نجائبه: نجائب الأشياء: لبابُها وخالصها.

حياةِ العربِ طاغيَةٌ كانَ يُرهبُ الصَّغيرَ والكبيرَ، وأَراحَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ وظُلمِهِ وسَفاسفِ عَقلِهِ وأَخلاقِهِ الَّتِي لا تَمُتُّ إِلى قيمِ العروبَةِ بِأَيِّ صلَةٍ، علماً أَنَّ هذا الملكَ المُتجبِّرَ في الأَرضِ قَدْ قَتلَ العديدَ مِنْ شُعراءِ العربِ المَعروفينَ، وعَلى رأسِهِمُ الشَّاعِرُ «طَرفَةُ بنُ العبدِ».

قالَ «عمرو بنُ كُلثومٍ» عندَ قَتلِهِ مَلكِ الحيرَةِ شعراً، مِنهُ الأَبياتُ التَّاليَةُ:

بِأَيِّ مشيئَةٍ «عمرو بنَ هندٍ» تُطيعُ بِنا الوشاةَ وتَزدرينا؟
تَهَدَّدَنا وأَوعَدَنا رُويداً مَتَّى كُنَّا لأُمِّكَ مُقتوينا؟
فَإِنَّ قَناتَنا يا عمرو أَعيَتْ عَلى الأَعداءِ قَبلَكَ أَنْ تَلينا!
ورِثنا مجدَ عَلقمةَ بنِ سيفٍ أَباحَ لنا حُصونَ المجدِ ديناً
إِذا بلَغَ الفِطامَ لنا وَليدٌ تَخرُّ لَهُ الجبابِرُ ساجدينا!

كما تَغنَّى بَعضُ الشعراءِ العربِ بِعملِ «عمرو بنِ كُلثومٍ»، فقدْ قالَ الشاعرُ «أَفنونُ صريم التَّغلبيُّ» يَفخرُ بِذلكَ:

لَعمرُكَ ما عمرو بنُ هندٍ وقَد دَعا لِتخدمَ ليلى أُمَّهُ بِموفَّقِ
فَقامَ ابْنُ كُلثومٍ إِلى السَّيفِ مُصلَّتاً فَأَمسكَ مِنْ نُدمائِهِ بِالمخنَقِ[1]
وجلَّلَهُ عمرو على الرَّأسِ ضربَةً بِذي شطبٍ[2] صافي الحديدِ رَونَقِ

❋ ❋ ❋

(1) المخنق: مكان الخنق، وهو العنق أو الحلق من الإنسان.
(2) ذي شطب: الشطب: شطب السيف: الخطوط تتراءى في متنه.

بَعدَ مَقتلِ ملكِ الحيرةِ عَلى يَدِ الشَّاعرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ»، أَصبَحتْ تَغلبُ عَلى عداءٍ شَديدٍ معَ المَناذرةِ، ومعَ مَنْ يُحالِفُهُمْ مِنَ القَبائِلِ العربيَّةِ، ولهذا اضطرَبتْ أَحوالُها، وراحَ أَبناؤُها يَتَنَقَّلونَ مِنْ مكانٍ إِلى آخرَ، وأَصابَهُمُ القَرحُ، وحَلَّتْ بِهِمُ الشَّدائِدُ.

ومِنْ ثَمَّ، أُسرَ الشَّاعِرُ «عمرو بنُ كُلثومٍ» مِنْ قِبلِ المناذرَةِ ذاتَ مَرَّةٍ، ثُمَّ أُطلقَ سراحُهُ لأَسبابٍ غفلَ عَنْ ذِكرِها المُؤرِّخونَ، وبَعدَ أَنْ أُطلقَ سراحُهُ هَدَّدَهُ ملكُ الحيرَةِ «النُّعمانُ أَبو قابوسٍ» بِالقتلِ، فَما كانَ مِنَ الشَّاعرِ الثَّائِرِ إِلَّا أَنْ هجاهُ بِأُمِّهِ وبِأَصلِها الأَعجميِّ الَّذِي لا يَمتُّ إِلى العربِ بِصلةٍ.

وبعدَ كفاحٍ شَديدٍ وطويلٍ مَعَ الأَهوالِ والشَّدائِدِ، وبَعدَ صِراعٍ مَريرٍ معَ مُلوكِ وحُكَّامِ الحيرةِ، تُوفيَ الشَّاعِرُ الثَّائِرُ «عمرو بنُ كُلثومٍ» عَنْ عُمرٍ ناهزَ التِّسعينَ عاماً، كما تُوفيَ بعدهُ مُباشرَةً الملكُ «النُّعمانُ أَبو قابوسٍ» سَنةَ (600) ميلاديَّةً.

ولِعمرو بنِ كُلثومٍ ابنٌ يُقالُ لَهُ «عبَّادٌ» وهوَ قاتلُ «بُشرِ بنِ عمرو بنِ عدسٍ» كما لَهُ عقبٌ، منهُمُ العتَّابيُّ الشَّاعِرُ المَشهورُ، واسمُهُ «كُلثومُ بنُ عَمرو» ويُكَنَّى أَبا عمرو، وكانَ شاعراً وكاتباً مُجيداً في الرَّسائِلِ.

تركَ لَنا «عمرو بنُ كُلثومٍ» مُعلَّقَتَهُ الشَّهيرةَ بِـ «النُّونيَّةِ» وهيَ ملحمةٌ شعريَّةٌ فيها مِنْ سعةِ الخيالِ، ودقَّةِ التَّصويرِ والتَّعبيرِ ما يَجعلُها في مُقدِّمةِ الشِّعْرِ الجاهليِّ، مادَّةً شعريَّةً ثَريَّةً لِمَنْ أَتَى بعدَهُ مِنَ الشُّعراءِ، وهيَ ما يُقاربُ المئةَ بيتٍ، وفيها يَتغنَّى بِأمجادِ قومِهِ، ويَذكرُ مَفاخرَهُمْ وبُطولاتِهِمْ بِروحٍ قَوميَّةٍ ثائرَةٍ عَلى الظُّلمِ والطُّغيانِ، جَعلَتِ الصَّغيرَ والكبيرَ مِنْ

بَني قومِهِ يَحفظونَها ويُردِّدونَها في الإِصباحِ والعشيِّ، حتَّى قالَ فيهِمْ أحدُ الشُّعراءِ البكريينَ:

أَلهَى بَني تَغلبَ عَنْ جُلِّ أَمرِهِمْ قَصيدةٌ قالَها عمرو بنُ كلثومِ
يُفاخرونَ بِها مُذْ كانَ أَوَّلُهُمْ يا لِلرِّجالِ مِنْ شعرٍ غيرِ مَسؤومِ[1]

وفي الحقيقَةِ، كانَ لِشعرِ «عمرو بنِ كُلثومٍ» قيمةٌ تاريخيَّةٌ عظيمةٌ؛ إِذْ عكسَ لنا في تَضاعيفِهِ، أَحداثَ تلكَ الحقبةِ مِنْ تاريخِ العربِ العاصفةِ بِالحروبِ والحافلَةِ بِالمعاركِ.

كما أَنَّنا حينَ نَقرأُ الآنَ شعرَ «عمرو بنِ كَلثومٍ» يَأْخذُنا الحماسُ، وتَدبُّ فينا الرُّوحُ القَوميَّةُ بِحرارةٍ وصدقٍ، وتَستَيقظُ في نُفوسِنا تِلكَ المشاعرُ الثَّائِرةُ عَلى الظُّلمِ والاستبدادِ، ويَدْعونا لنَبذِ بضاعَتِهما وأَدواتِهما الفاشيَةِ، وكذلِكَ عَلى مواجهةِ كُلِّ ما يُهدِّدُ مَصيرَ الأُمَّةِ وأَمنَها القوميَّ.

فاسمَعْ مثلاً إِلى «عمرو» وهوَ مدفوعٌ بِخيالِهِ الجامحِ والثَّائرِ، يُعلي مِنْ شأنِ قَبيلتِهِ بأُسلوبٍ مَلحميٍّ يَبعثُ في نُفوسِنا الحميَّةَ عَلى مُجابَهةِ أَعدائِنا، وعلى الوقوفِ في وَجهِ الأَخطارِ الَّتي تُهدِّدُ حياتَنا أَيّاً كانَ نَوعُها:

مَلأنا البَرَّ حتَى ضاقَ عَنَّا وظَهرُ البحرِ نَملؤهُ سَفينا
نَقودُ الخيلَ داميَةً كلاها إِلى الأَعداءِ لاحقةً بُطونا
لنا الدُّنيا ومَنْ أَضحَى عليها ونبطشُ حينَ نَبطشُ قادرينا

(1) مسؤوم: اسم المفعول من سئم: ضجر وملّ.

وفي موضعٍ آخرَ يَصفُ لنا حالَ التَّغلبيينَ ساعةَ الحربِ، فَيكرُّونَ كُلُّهُمْ أَبطالاً عَلى العدوِّ صغاراً وكباراً، رِجالاً ونساءً وشُيوخاً، حتَّى النِّساءُ البيضُ الحرائرُ يَتبَعنَ الرِّجالَ إِلى الحربِ لِيُثْرْنَ الحماسَ في الصُّدورِ، ويَأبينَ إِلَّا بُعولةً أَبطالاً، فَيقولُ:

عَلى آثارِنا بيضٌ حِسانٌ نُحاذِرُ أَنْ تُقسَمَ أَو تَهونا

يَقُتْنَ جيادَنا ويَقُلنَ لَستُمْ بُعولَتَنا إِنْ لَمْ تَمنعونا

ولِهذا، اعتبرَ النُّقادُ مُعلَّقَةَ «عمرو بنِ كُلثومٍ» مِنْ أَغنَى الشعرِ الجاهليِّ عَلى الإِطلاقِ بِالعناصرِ المَلحميَّةِ، والفَوائِدِ التَّاريخيَّةِ والاجتماعيَّةِ الَّتِي تُزَكِّي الرُّوحَ الثَّوريَّةَ والقَوميَّةَ في نُفوسِ أَبناءِ الأُمَّةِ العربيَّةِ، وكثيراً ما استَخدمَ الكُتَّابُ المُعاصرونَ أَبياتَهُ الشعريَّةَ في إِذكاءِ روحِ الحماسِ والمُقاومةِ لأَبناءِ الأُمَّةِ.

فَبورِكَ «عمرو بنُ كُلثومٍ»، وبورِكَ شعرُهُ الثَّائرُ، وبُورِكَ كُلُّ مُقاومٍ ورافضٍ للاستبدادِ والظُّلمِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ كيفَ كانَ أَبناء قبيلة تغلبَ يُردِّدونَ شعرَ عمرو؟

2 ـ ماذا كانَ عمرو بنُ كُلثومٍ يُمثِّلُ في قبيلتِهِ؟

3 ـ إِلى مَن يرجعُ أصلُ عمرو بنِ كُلثومٍ، ومَنْ هوَ أَبوهُ، ومَنْ تكونُ أُمُّهُ؟

4 ـ بِمَنْ تَأَثَّرَ الشَّاعِرُ عمرو بنُ كُلثومٍ؟

5 ـ كيفَ كانَ الملكُ عمرو بن هندٍ؟

6 ـ كيفَ أَصبحَ حالُ قبيلةِ تغلبَ بَعدَ مقتلِ ملكِ الحيرةِ؟

7 ـ كيفَ هَجا عمرو بنُ كُلثومٍ الملكَ أَبا قابوسٍ.

8 ـ ما هيَ الأَهميَّةُ التَّاريخيَّةُ لِشعرِ عمرو بنِ كُلثومٍ؟

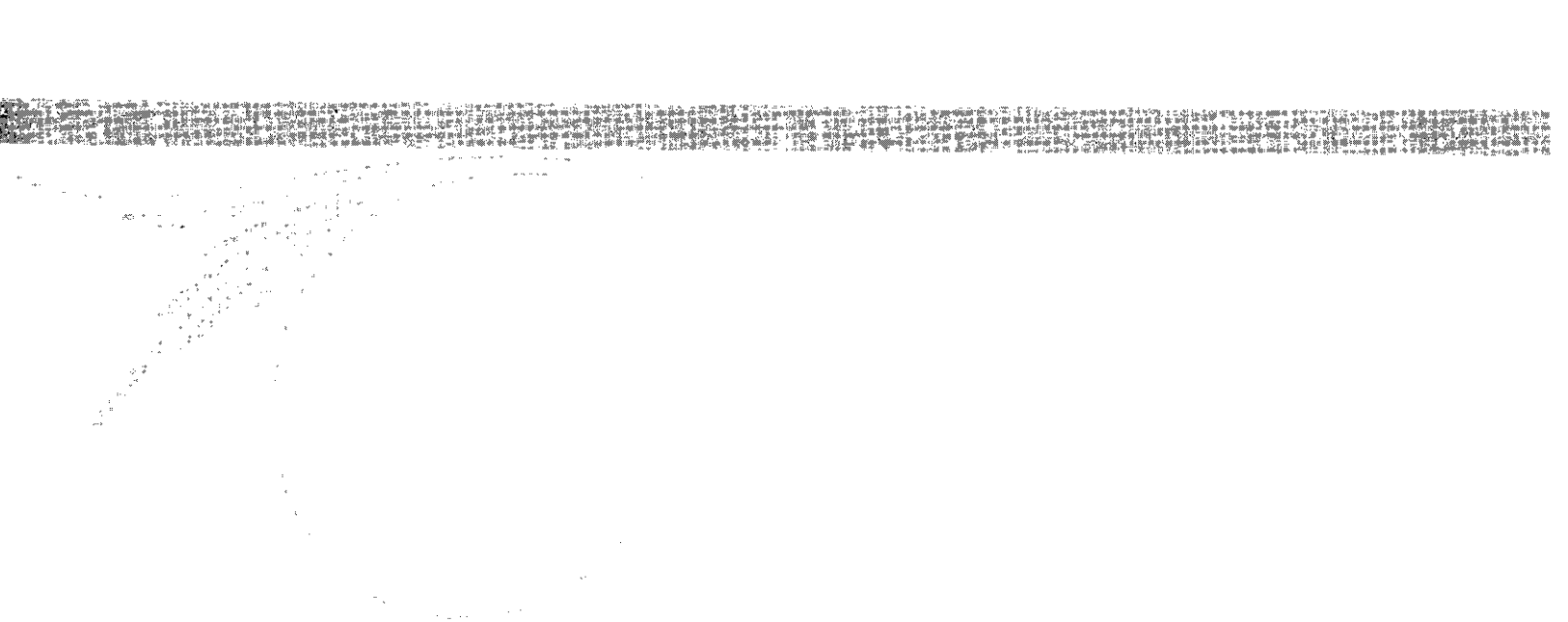

الحارثُ بنُ حلزةَ
سَاعِرُ الفَخرِ
(. . . ـ 580م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ، مِنَ الرَّعيلِ الأَوَّلِ مِنْ شُعراءِ العربِ في الجاهليَّةِ، ومِنْ أَصحابِ المُعلَّقاتِ السَّبعِ، ومِنَ المَشهودِ لَهُمْ بِالرِّيادةِ في الشِّعْرِ، وبِالتَّفوُّقِ والسُّموِّ عَلى شُعراءِ عَصرِهِ.

كانَ هذا الشَّاعِرُ مِنْ حُكماءِ العربِ المَعدودينَ، ومِنْ خُطبائِهِمُ المَشهورينَ، ومِنْ ذَوي الخبرَةِ والرَّأي والمَشورَةِ مِمَّنْ كانَتِ العربُ يَلتَجئونَ لِلتَّحكيمِ في خِلافاتِهِمْ، أَو لِحَلِّ مُشكلاتِهِمْ.

وتَميَّزَ شعرُ هذا الشَّاعرِ بِالرَّصانَةِ والمَتانَةِ، وقوَّةِ التَّراكيبِ والصُّوَرِ، وجَزالةِ الأَلفاظِ، وبَلاغةِ المَعاني، والموسيقا الشِّعريَّةِ الجَذَّابَةِ، وهوَ مِنَ الأَهميَّةِ بِمكانٍ هُنا، حيثُ اعتبَرَهُ

النُّقادُ والمُؤَرِّخونَ مِنَ الأَشعارِ الَّتِي خَلَّدَتْ لَنا أَيَّامَ العربِ ووَقائِعَهُمْ وحروبَهُمْ بِأُسلوبٍ تاريخيٍّ وقصَصيٍّ مَلحَميٍّ، يَسرَحُ معهُ الخيالُ إِلى الماضي الغابِرِ السَّحيقِ، فَينظرُ إِلى العربِ في صَحرائِهِمْ، ويَرنو إِلى حياتِهِمُ البَدويَّةِ بِكُلِّ ما تَحويهِ مِنْ قِيَمٍ وعاداتٍ وأَعرافٍ وتقاليدَ، وبِكُلِّ ما فيها مِنْ حماسٍ وولاءٍ وعصبيَّةٍ.

فَهَلْ عَرَفتُمْ مَنْ يَكونُ هَذا الشَّاعِرُ المُجيدُ؟

إِنَّهُ شاعرُ الفَخرِ والحماسَةِ، مَنْ تَغَنَّى بِأَمجادِ العربِ، وشَدا بِأَيَّامِهِمُ التَّليدَةِ في الحروبِ والملَماتِ، «الحارثُ بنُ حلزةَ اليَشكُريُّ».

فَتعالوا لِنَتعرَّفَ عليهِ في هذِهِ الصَّفحاتِ والسُّطورِ.

❋ ❋ ❋

«الحارثُ بنُ حلزةَ اليَشكريُّ» شاعرٌ جاهليٌّ مِنَ المُخضرمينَ، ومِنَ الطَّبقَةِ الأُولى مِنْ شُعراءِ العربِ في الجاهليَّةِ، ولِدَ وعاشَ في باديَةِ العراقِ، واكتَسَبَ شُهرَةً واسِعةً بينَ العربِ لِما كانَ يُعرفُ بِهِ مِنْ فَضلٍ وعُلوِّ منزلَةٍ، ولِما عُرِفَ بِهِ مِنْ وجاهَةٍ بينَ أَسيادِ العربِ، فاقَتْ وجاهَةَ المُلوكِ في بَعضِ الأَحيانِ.

وهوَ مِنْ عُظماءِ قَبيلَةِ وائِلِ بنِ بَكرٍ مِنْ غَطفانَ، ومِنْ أَصحابِ المُعلَّقاتِ الَّذِين اتَّصَفَ شعرُهُمْ بِالقُوَّةِ والجزالَةِ والرَّصانَةِ.

وهوَ «الحارثُ بنُ حلزَةَ بنِ مَكروهِ بنِ يَزيدَ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ مالِكِ بنِ عَبْدٍ بنِ سَعدِ بنِ جَشم بنِ عاصمِ بنِ ذَبيانَ بنِ كِنانَةَ بنِ يَشكرَ بنِ بَكرِ بنِ وائِلِ بنِ أَسدِ بنِ ربيعةَ بنِ نزارٍ».

كانَ «الحارثُ بنُ حلزَةَ» مِنَ الحُكماءِ المَعدودينَ في الجزيرَةِ العربيَّةِ، وقَدْ لَعبَ دوراً كبيراً في إرهاصاتِ الحياةِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ في حَياةِ قَبائِلِها، فَضلاً عَنْ قَبيلَتِهِ الَّذي كانَ شَخصَها اللَّامعَ، وصَوتَها المُدافِعَ، كما كانَ مُحامياً بارِعاً مُتَكَلِّماً مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ، وفارساً مُلهَماً في ساحاتِ القِتالِ حَتَّى في شَيخوخَتِهِ.

كَما كانتِ العربُ تَحتَكمُ إليهِ في الخِلافاتِ الَّتي كانَتْ تَنشبُ بينَ أَقوامِها وقَبائِلِها، أَو بينَ أَبناءِ القَبيلَةِ الواحدةِ، فَكثيراً ما أَصلحَ ذاتَ البينِ بينَ القَبائِلِ المُتناحرَةِ والمُتحارِبَةِ، وأَعادَ بينَهُمُ الوِئامَ والسَّلامَ.

وقَدْ كانَ فيهِ بَرَصٌ اشْتُهرَ بِهِ، فَهوَ مِنَ البُرصانِ المَعدودينَ في تاريخِ العربِ الجاهليِّ. وفي حربِ البَسوسِ بينَ بَكرٍ وتَغلبَ لَعبَ «الحارثُ بنُ حلزَةَ» دوراً كبيراً في السَّعيِ لِلإصلاحِ بينَ القَبيلَتينِ، وفي تَقريبِ وجهاتِ النَّظرِ بَينَهُما لِوَقفِ القِتالِ، وإِطفاءِ نارِ الحربِ بَينَهُما. فبَعدَ أَنْ حَطَّتِ الحربُ أَوزَارَها بينَ الطَّرفينِ، وعادَ الوِئامُ بَينَهُما، وعَمَّ السَّلامُ في حَياتِهما، أَطَلَّتْ رِياحُ الفِتنَةِ بِرأَسِها مِنْ جَديدٍ، تُنذِرُ بِتَأَجُّجِ نيرانِ الحربِ بينَ القَبيلَتينِ، وأَبناءُ القَبيلَتينِ لَمْ يَكادوا لِيَنسَوا جِراحاتِهِمْ في الحربِ السَّالِفَةِ بَعدُ.

وهُنا بَذَلَ «الحارِثُ بنُ حلزَةَ» جُهدَهُ الجَهيدَ لِمَنعِ نُشوبِ القِتالِ بينَ بَكرٍ وتغلبَ، وأَطفَأَ بِغَيثِ حِكمَتِهِ أَلسِنَةَ اللَّهبِ الَّتي تَطايَرَ شَرَرُها، وخَيَّمَ عَلى حياةِ النَّاسِ حينَها.

❋ ❋ ❋

دامَتْ حربُ البَسوسِ بينَ قَبيلَتي بَكرٍ وتغلبَ أَربعينَ عاماً، وكانَ مِنْ خَبَرِ هذِهِ الحربِ

أَنَّ هَاتَيْنِ القَبِيْلَتَيْنِ كانَتا أَبناءَ عَمٍّ، تَعيشانِ جَنباً إِلى جَنبٍ، وتَخضعانِ لِحُكمِ المَلكِ العَربيِّ «كُلَيْبٍ»، اسمُهُ الحَقيقيُّ «وائِلُ بنُ ربيعةَ»، وكانَ أَوَّلَ مَلكٍ عَربيٍّ في باديَةِ نَجدٍ.

داخَلَتْ نَفسَ المَلكِ «كُلَيبٍ» نَزعاتُ الزَّهوِ والبَطرِ والكبرِ يَوماً، وبَغَى وتَجَبَّرَ عَلى قَومِهِ بَعدَ أَنْ قَويَ أَمرُهُ بينَ العربِ، واشتدَّ ساعدُهُ، واتَّسَعَتْ شُهرَتُهُ، حيثُ كانَ يَهابُهُ الكبيرُ والصَّغيرُ. وكانَ إِذا جَلسَ في مَكانٍ لا يَمرُّ أَحدٌ بينَ يَديهِ إِجلالاً لَهُ، وخَوفاً مِنْ جَبروتِهِ وبَطشِهِ، كَما أَنَّهُ حَرَّمَ عَلى أَبناءِ القَبيلَتينِ أَنْ يَرعَوا إِبِلَهُمْ وخَيلَهُمْ وأَغنامَهُمْ مَعَ إِبِلِهِ وخيلِهِ وأَغنامِهِ، وخَصصَّ لِمواشيهِ حِمىً لا يَطؤُها أَحدٌ يَرعَى فيها مواشيه.

تَزوَّجَ «كُلَيْبٌ» بِابنَةِ عَمِّهِ «الجليلَةِ»، وكانَ لَها عَشرَةُ إِخوَة مِنْ أَبيها «مُرَّةَ» أَصغَرُهُمْ «جَسَّاسٌ»، وكانَ مَعروفاً بِشَجاعَتِهِ وفُروسيَّتِهِ، وكانَ لِجَسَّاسٍ خالَةٌ اسمُها «البَسوسُ» نَزَلَتْ في جِوارِهِ يَوماً، ومَعها ناقَتُها «السَّرابُ»، فَسَرَحَتْ ناقَتُها يوماً، ودَخَلَتْ حِمَى «كُلَيْبٍ» لِتَرعَى، فَرَمَى «كُلَيْبٌ» النَاقَةَ بِقَوسِهِ فَقَتلَها. فَصاحَتِ البَّسوسُ: واذُلَّاهُ! فَهبَّ ابنُ أُختِها «جَسَّاسٌ» لِيَنْصُرَها، وصادفَ «كُلَيْباً» في حِماه عندَ أَحدِ الغُدرانِ، فَرماهُ بِسهمِهِ فَقَتلَهُ. فَثارَتْ ثائِرَةُ «المُهَلهِل» أَخي «كُلَيْبٍ»، وقامَ لِلثَّأْرِ لأَخيهِ، وقامَتْ مَعَهُ قَبيلَتُهُ «تَغلبُ» كُلُّها.

فَنَشَبَتْ حربٌ بينَ بَكرٍ وتغلبَ، ودامَتْ أَربعينَ عاماً شَغَلَتِ العربَ في الجزيرَةِ العربيَّةِ، وقَدْ أَطلَقوا عَلى هَذِهِ الحربِ «البَسوس»، لأَنَّها وَقعَتْ بِسَبَبِ ناقَةِ «البَسوسِ» خالَةِ «جسَّاسٍ».

وخلالَ هَذِهِ الحربِ، كانَ الشَّاعِرُ والخَطيبُ والحَكيمُ «الحارثُ بنُ حلزَةَ» يَبذلُ

جهدَهُ، ويَصرفُ جُلَّ أَوقاتِهِ في مُحاوَلاتِهِ الدَّؤُوبَةِ لِوَقفِ الحربِ، ولِلإِصلاحِ بينَ القَبيلَتينِ؛ لأَنَّهُ كانَ يَتمتَّعُ بِمَكانَةٍ ساميَةٍ في القَبيلتينِ، لَكِنَّ الحِميَّةَ والعَصبيَّةَ القَبليَّةَ بينَ القَبيلَتينِ كانَتْ تُفسِدُ عليهِ جُهودَهُ. ورَغْمَ ذَلِكَ تَمَكَّنَ أَخيراً ـ بِفَضلِ حكمَتِهِ ورَوِيَّتِهِ ـ أَنْ يُقنِعَ أَشرافَ وفُضلاءَ القَبيلَتينِ بِالاحتِكامِ إِلى مَلكِ الحيرَةِ «المُنذِرِ بنِ ماءِ السَّماءِ» مِنْ أَجلِ تَحقيقِ الصُّلحِ بينَهُما، فَفَعلوا. وفَصلَ المِلكُ «المُنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ» بينَ الفَريقينِ، وقَطعَ دابِرَ الخِلافِ، وبالتَّالي حَقَنَ الدِّماءَ الَّتي سالَتْ مِنَ الطَّرفينِ أَربعينَ عاماً.

❋ ❋ ❋

ولَمْ يَمضِ وَقتٌ طَويلٌ عَلى هذا الصُّلحِ بينَ القَبيلَتينِ، حَتَّى وَقعَ خِلافٌ جَديدٌ بينَهُما، فَدَقَّتْ نواقيسُ الخَطرِ تُنذِرُ بِحربٍ جَديدةٍ بينَ الطَّرفينِ. وكانَ «الحارثُ بنُ حلزةَ» طرفاً في هذا الخلافِ، فَمالَ إِلى جانبِ قبيلَةِ بكرِ بنِ وائلٍ.

فاستطاعَ «الحارثُ» ـ بِحنكَتِهِ ودهائِهِ لِلمرَّةِ الثانيَّةِ ـ صَرفَ جموعِ القَبيلَتينِ عَنِ الحربِ والقِتالِ، وأَقنعَ الجَميعَ بِضَرورَةِ الاحتكامِ إِلى مَلكِ الحيرَةِ. ولَكِنْ هذِهِ المرَّةُ إِلى الملكِ «عمرو بنِ هِندٍ» الَّذي خلفَ أَباهُ «المُنذرَ بنَ ماءِ السَّماءِ».

وكانَ في هذا الاحتِكامِ الشَّاعِرُ «عمرو بنُ كَلثومٍ» لِسانَ قَبيلَةِ تغلبَ وسَيِّدَها وشاعرَها، بينَما كانَ «الحارثُ بنُ حلزةَ» لِسانَ بَكرٍ وشاعرَها، فَأَنشدَ «عمرو بنُ كَلثومٍ» قِسماً مِنْ مُعلَّقَتِهِ يُفاخرُ فيها بِأَمجادِ قَبيلَتِهِ، ويُدافِعُ عَنْ حَقِّهِمْ ومَوقِفِهِمْ في هذا الخلافِ، فَوقفَ «الحارثُ بنُ حلزةَ» ـ وهوَ الشَّيخُ المُهابُ ـ وأَنشدَ مُعلَّقَتَهُ الَّتي ارتَجلَها ارْتِجالاً، يُفَنِّدُ فيها

آراءَ «عَمرِو بنِ كلثومٍ» ويُحمِّلُ قَبيلَةَ تغلبَ تَبعات هَذا الخلافِ، مادحاً فيها الملكَ «عَمرو بنَ هِندٍ»، فَحكَمَ مَلكُ الحيرَةِ لِبَكرٍ عَلى تغلبَ بَعدما أُعجِبَ بِفصاحَةِ «الحارثِ بنِ حِلزةَ» الَّتي لا تَعلوها فَصاحةٌ حينَها، وطَرُبَ لِشعرِهِ الَّذي لا يُنافِسُهُ شعرٌ أَو بيانٌ وَقتَها.

ويُروَى أَنَّ «الحارِثَ بنَ حلزةَ» لَمَّا ارْتَجلَ مُعلَّقَتَهُ في مجلسِ «عمرو بنِ هندٍ» علاهُ الغَضبُ، وأَخذَهُ الحماسُ، وكانَ مُتَّكِئاً عَلى نَصلِ قَوسِهِ، فَانْغَرَزَتْ في كَفِّهِ وهوَ لا يَشعرُ بِها حَتَّى انْتَهَى مِنِ ارْتجالِ الشِّعْرِ.

كَما يُروَى أَيضاً أَنَّ الملكَ «عمرو بنَ هندٍ» كانَ يَأْنَفُ مِنَ البُرصانِ، ويُبعدُهُمْ عَنْ غِشيانِ مَجلسِهِ، وكانَ «الحارثُ بنُ حلزةَ» أَبرَصَ، فَضُربَ عليهِ في مجلسِ «عمرو بنِ هندٍ» حِجاباً، حَتَّى لا يَراهُ المَلكُ فَتَتَقَزَّزَ نَفسُهُ مِنْهُ.

ولَكِنْ، بَعدَ أَنْ سَمعَ الملِكُ «عمرو بنُ هندٍ» قَصيدَةَ «الحارثِ» وأُطربَ بِها، وأُعجبَ بِفصاحةِ وقُوَّةِ حجَّةِ «الحارثِ» أَمرَ بِرَفعِ الحِجابِ، فَأُزيلَ السِّتارُ الفاصِلُ في المَجلسِ، وأَجلسَ «عمرو بنُ هندٍ» «الحارثَ بنَ حلزَةَ» إِلى جانِبِهِ، وأَقامَ وليمَةً كبيرَةً عَلى شَرَفِهِ وتَقديراً لِشعرِهِ، ولَمْ يَعُدْ يَأْنَفُ مِنْ مُجالَستِهِ.

بَلْ، يَذكُرُ «ابنُ رَشيقٍ القيروانيُّ» في كتابِهِ «العمدةِ في محاسنِ الشِّعْرِ وآدابِهِ» أَنَّ «الحارثَ بنَ حلزةَ» مِنَ الشُّعراءِ المَعروفينَ الَّذِينَ ارتَفَعوا عَنِ النَّاسِ مَكانَةً ومَنزلَةً بِشعرِهِمْ.

ويُذكَرُ أَنَّ الملكَ «عمرو بنَ هندٍ» يَومَ أَلقَى «الحارثُ» مُعلَّقَتَهُ في مجلسِهِ أمرَ بِضربِ

حائِلٍ بَينَهُما مُؤَلَّف مِنْ سَبعةِ حُجبٍ. فَما زالَ المَلكُ يَأمرُ بِرَفعِها حجاباً حِجاباً لِحُسنِ ما يَسمعُ مِنْ شعرِ «الحارثِ بنِ حلزةَ» حَتَّى لَمْ يَبقَ بَينَهُما حِجابٌ. ثُمَّ أَدناهُ وقَرَّبَهُ، ورفعَ مَكانَتَهُ عِندَهُ.

وتُعَدُّ القَصيدةُ الَّتِي ارْتَجَلَها الشَّاعِرُ «الحارثُ بنُ حِلزةَ» في هذا المَقامِ، مِنْ أَروعِ وأَقوَى وأَجزلِ ما قيلَ مِنْ شعرٍ فَخريٍّ ومَلحَميٍّ في الشِّعْرِ العربيِّ القَديمِ، ولِهذا كانَتْ مِنْ أَوَّلِ المُعلَّقاتِ السَّبعِ الَّتِي اختارَها رِجالُ الفِكرِ والأَدبِ في ذَلكَ العَصرِ لِتُعَلَّقَ عَلى جُدرانِ الكَعبَةِ تَمييزاً لَها عَنْ بَقيَّةِ شعرِ العربِ قيمةً وبلاغَةً وفَنّاً.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَتْ لَهجةُ الشَّاعرِ «الحارِثِ بنِ حلزةَ» في مُعلَّقَتِهِ الرَّائِعةِ، تَجمَعُ بينَ قُوَّةِ الفِكرِ، ولينِ اللَّفظِ، ووضوحِ الحجَّةِ، والحماسَةِ في المدحِ. ولِهذا دَخلَتْ قَلبَ المَلكِ كالسِّحرِ، وبَعَثَتْ في نَفسِهِ انقلاباً حاقِداً عَلى بَني تَغلبَ، كما قيلَ.

وكما قالَ أَحدُ النُّقادِ المُعاصرينَ: «لَقَدْ جَمَعتْ مُعلَّقَةُ «الحارثِ بنِ حِلزةَ» كلامَ العقلِ والتَّاريخِ والخطابَةِ».

وإِليكُمُ الآنَ طَرفاً مِنْ هذِهِ القَصيدةِ الَّتِي جَعلَتْ مِنْ قائِلِها شاعرَ الفَخرِ بِلا مُنازِعٍ أَو مُنافِسٍ عَلى هذا اللَّقبِ:

آذَنَتْنا، بِبَيْنِها[1] أَسماءُ رُبَّ ثاوٍ، يُمَلُّ مِنهُ الثَّواءُ

---

(1) بينَها: البَيْن: البعد.

آذَنَتْنا بِبَيْنِها ثُمَّ وَلَّتْ ... ليتَ شِعري مَتَّى يَكونُ اللِّقاءُ؟
وأتانا عَنِ الأَراقِمِ أَنبا ... ءٌ وخَطبٌ نُعنَى بِهِ ونُساءُ
أَنَّ إِخوانَنا الأَراقِمَ يَغلو ... نَ علينا في قَولِهِمْ إِجفاءُ
يَخلطونَ البَريءَ مِنَّا بِذي الذَّنـ ... ـبِ، ولا يَنفَعُ الخَليَّ الخِلاءُ
أَيُّها النَّاطِقُ المُرَقِّشُ عَنَّا ... عِندَ عمرٍو، وهَلْ لِذاكَ بَقاءُ؟
لا تَخلُنا عَلى غَرائِكَ، إِنَّا ... قَبلُ ما قَدْ وَشَى بِنا الأَعداءُ
فَبَقيْنا عَلَى الشَّناءَةِ تَنمينا ... حُصونٌ، وعِزَّةٌ قَعساءُ
زَعَموا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضربَ العيـ ... ـرَ، مُوالٍ لَنا، وأَنَّا الوَلاءُ
هَلْ عَلِمتُمْ أَيَّامَ يُنتَهبُ النَّا ... سُ غِواراً لِكُلِّ حَيٍّ عواءُ
إِذْ رَفَعنا الجِمالَ مِنْ سَعفِ البَحـ ... ـرَينِ حَتَّى نَهاها الحِساءُ
فَمَلَكنا بِذَلكَ النَّاسَ حَتَّى ... مَلكَ المُنذِرُ بنُ ماءِ السَّماء
مَلكٌ أَضلَعُ البَريَّةِ لا يو ... جَدُ فيها لِما لَديهِ كِفاءُ
فاترُكوا البَغيَّ والتَّعدِّي وإِمَّا ... تَتعاشوا فَفي التَّعاشي الدَّواءُ
مِثلُها تَخرجُ النَّصيحةُ لِلقَو ... مِ فَلاةٌ مِنْ دونِها أَفلاءُ

ومِمَّا جاءَ في كتابِ «خزانةِ الأَدبِ» لِلبغداديِّ، أَنَّ «هندَ» أُمَّ المَلكِ «عمرو بنِ هندٍ» كانَتْ تَسمعُ إِلى قَصيدةِ «الحارثِ بنِ حلزةَ» مِنْ وراءِ سترٍ، فَلمَّا سَمعَتْها قالَتْ: ـ تاللهِ،

ما رأَيتُ كَاليومِ قَطُّ رَجلاً يَقولُ مثلَ هذا القَولِ، ويُكلَّمُ مِنْ وراءِ سَبعِ ستورٍ.

ولِهذا، اعتبرَتِ العربُ أنَّ مُعلَّقةَ «الحارثِ» هذِهِ إِحدَى ثَلاثِ قَصائِدَ لَمْ تَقُلِ العربُ مِثلَهُنَّ في الفَخرِ، فَهيَ مِنْ مَفاخرِ العربِ في الشِّعْرِ.

قالَ أَبو عبيدةَ: «أَجودُ الشُّعراءِ ثَلاثَةُ نَفرٍ: «عمرو بنُ كَلثومٍ» و«الحارثُ بنُ حلزةَ» و«طَرفَةُ بنُ العبدِ»».

وقالَ مُعاويَةُ بنُ أَبي سَفيانَ: مِنْ مفاخرِ العربِ، قَصيدةُ «عمرِو بنِ كلثومٍ»، وقَصيدةُ «الحارثِ بنِ حلزةَ» كانتا مُعلَّقتينِ بِالكعبَةِ دهراً.

❋ ❋ ❋

وهُناكَ الكثيرُ مِنْ شعرِ «الحارثِ بنِ حلزةَ» الَّذي ذَهبَ مذهبَ الأَمثالِ في شعرِ العربِ مِمَّا اختارَهُ المُصنِّفونَ لِهذا الغرضِ. ومِمَّا ذَكرَهُ «العُبيديُّ» في كِتابِهِ «التَّذكرَةِ السَّعديَّةِ في الأَشعارِ العربيَّةِ» لِلحارثِ بنِ حلزةَ، هذِهِ الأَبياتَ التَّاليَةَ:

هَوِّنِ الأَمرَ تَعِشْ في راحةٍ ... قَلَّ ما هوَّنتَ إِلَّا سَيهونُ

سائِلِ الأَيَّامَ عَنْ أَملاكِها ... أَيَّ دُرٍّ حلَبتْ عَنها اللَّبونُ[1]

لا يَكونُ العيشُ سَهلاً كُلُّهُ ... إِنَّما العيشُ سهولٌ وحُزونُ

والمَلمَّاتُ فَما أَعجَبُها ... لِلملمَّاتِ ظهورٌ وبُطونُ

---

(1) اللبون: التي نزل اللبن في ضرعها، والجمعُ: لُبْن.

رُبَّـمـا قَـرَّتْ عُـيـونٌ بِـشَـجـيٍ مُـرمـضٍ قَـدْ سَـخـنَـتْ عَـنـهُ عُـيـونُ

ويُقالُ: إنَّ «الحارثَ بنَ حلزةَ» قَدْ عُمِّرَ طَويلاً، وتُوفيَ سَنةَ (580) ميلاديَّةً. وأَوردَ «البَغداديُّ» في «خزانةِ الأَدبِ» قَولاً لِلأَصمَعيِّ مَفادُهُ: إنَّ «الحارثَ بنَ حلزةَ» قالَ قَصيدَتَهُ عندَ «عمرو بنِ هندٍ» وهوَ ـ يعني: الحارثَ ـ ابنُ مئَةٍ وخمسٍ وثلاثينَ سَنةً.

وذَكرَ المُؤَرِّخونَ أَنَّهُ كانَ لِلحارثِ بنِ حلزةَ ابنٌ يُقالُ لَهُ: مَذعورٌ، وكانَ لِمذعورٍ ابنٌ يُقالُ لَهُ: شهابُ بنُ مَذعورٍ بنِ الحارثِ، وكانَ نَسَّابَةً راويَةً.

كَما كانَ لِلشَّاعرِ «الحارثِ بنِ حلزَةَ» أَخٌ يَصغَرُهُ سِنّاً، اسمُهُ «عمرو بنُ حلزةَ» وكانَ شاعراً أَيضاً، ولَكِنْ لَمْ يَبلُغْ ما بَلغَ أَخوهُ «الحارثُ» مِنْ مَنزلَةٍ ومَكانَةٍ بينَ العربِ، ولَمْ يَرقَ شِعرُهُ إلى ما ارتَقى إِليهِ شعرُ «الحارثِ».

وكانَ مِمَّا رَثى فيهِ «عمرو» أَخاهُ «الحارثَ» عندَ موتِهِ قَولُهُ هَذِهِ الأَبياتَ الَّتِي ذَكرها «المرزبانيُّ» في «مُعجمِ الشُّعراءِ»:

يَـأْمَـنُ الأَيَّـامَ مُـغـتـرّاً بِـهـا مـا رَأَيـنـا قَـطُّ دهـراً لا يَـخـونُ

لا تَـكُـنْ مُـحـتَـقـراً شَـأنَ امـرئٍ رُبَّـمـا كـانَ مِـنَ الـشَّـأنِ شُـؤونُ

وقَدْ وَصلَ إِلينا مِنْ شعرِ «الحارثِ بنِ حِلزةَ» عَلى وَجهِ التَّحديدِ مُعَلَّقَتُهُ الشَّهيرَةُ، وهيَ همزيَّةٌ مِنَ البَحرِ الخَفيفِ، تَقعُ في (85) بيتاً، تُرجِمَتْ إِلى عِدَّةِ لُغاتٍ، كما لَهُ شعرٌ مُتَفرِّقٌ في كُتبِ الأَدبِ، أَحصاها أَحدُهُمْ فَبَلغَ مَجموعُها إِضافَةً إِلى المُعلَّقةِ (178) بيتاً.

وعَنِ القيمةِ التَّاريخيَّةِ لمعَلَّقَتِهِ يَقولُ أَحدُ النُّقَّادِ المُعاصرينَ: «في مُعَلَّقةِ «الحارثِ بنِ

حِلزةَ» مِنَ الفَوائِدِ التَّاريخيَّةِ ما يَجعلُ لها قيمةً خاصَّةً فَوقَ قيمَتِها الأَدبيَّةِ، فَهُناكَ أَبياتٌ كثيرَةٌ في شَرحِ أَحداثٍ تاريخيَّةٍ وسِياسيَّةٍ، مِنْ صُلحٍ بينَ بَكرٍ وتَغلبَ، وأَيَّامٍ غَلبَتْ فيها تَغلبُ، وضَغائِنَ قَديمةٍ كانتْ بينَ تغلبَ والمَناذرَةِ، وولاءٍ قائِمٍ بينَ بَكرٍ والحيرَةِ، إلَى غيرِ ذَلكَ مِمَّا لَمْ يَجتَمِعْ في قَصيدةٍ أُخرَى جاهليَّةٍ.

وجُملَةُ القَولِ: إنَّ لِشعرِ «الحارثِ بنِ حلزةَ» قيمةٌ أَدبيَّةٌ كبيرَةٌ، فَضلاً عَنِ القيمةِ التَّاريخيَّةِ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مَاذَا كَانَ الشَّاعِرُ «الحارِثُ بْنُ حلْزَةَ»؟

2 ـ بِماذَا تَميَّزَ شعرُ «الحارثِ بنِ حلزةَ»؟

3 ـ أينَ ولدَ وعاشَ «الحارثُ بنُ حلزةَ»، وإِلى مَنْ يَنتهي نَسبُهُ؟

4 ـ ماذا كانَ «الحارثُ بنُ حلزةَ» يُمثِّلُ في شَخصِهِ؟

5 ـ ما هوَ الدَّورُ الَّذي لَعبَهُ «الحارثُ بنُ حلزةَ» في حربِ البَسوسِ؟

6 ـ كيفَ كانَ حالُ «الحارثِ بنِ حلزةَ» عندما ارتجلَ مُعلَّقَتَهُ؟

7 ـ بِماذا أَمرَ الملكُ «عمرو بنُ هندٍ» عندما سمعَ قَصيدةَ الحارثِ؟

8 ـ ما هيَ الأَهميَّةُ التَّاريخيَّةُ لِمُعلَّقةِ «الحارثِ بنِ حلزةَ»؟

النَّابغةُ الذُّبيانيُّ
سَاعرُ الملوكِ
(525 ـ 604م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ، سُطوراً مِنْ حياةِ واحدٍ مِنْ شُعراءِ العربِ في الجاهليَّةِ، كانَ مدرسَةً في الشِّعْرِ لِمَنْ أَتَى بَعدهُ مِنْ شُعراءِ العربِ.

فَقَدِ استَطاعَ هذا الشَّاعِرُ أَنْ يَفتحَ في مَسيرةِ الشِّعْرِ العربيِّ آفاقاً جَديدةً لَمْ تَكُنْ موجودةً في أَشعارِ الَّذِيْنَ سَبقوهُ.

أَخرجَ هذا الشَّاعِرُ الفَنَّانُ الشِّعْرَ مِنْ قمقمِ القَبيلَةِ، ومِنْ قَفصِ الحياةِ والبيئَةِ الاجتماعيَّةِ المُحيطةِ بِهِ، إِلى عالمٍ أَرحبَ، وأَوسعَ، يَسودُ فيهِ العامُّ عَلى الخاصِّ، وتَسودُ فيهِ قيَمُ ومَصلحةُ الأُمَّةِ كُلِّها عَلى مَصلحةِ وقيمِ الفَردِ والقَبيلَةِ الواحدةِ، ولَكِنَّهُ في الوقتِ ذاتِهِ لَمْ يَفتْهُ تَوَخِّي مَصلحةِ قَبيلَتِهِ، والسَّعيُ لِتَحقيقِ أَمنِها واستقرارِها، فَهذا كانَ في مُقدِّمةِ أَهدافِهِ

ومَساعيهِ، بَلْ إِنَّهُ كَثيراً ما كانَ يُقدِّمُ مَصلحَةَ الجماعةِ والقَبيلَةِ على مَصالحِهِ الشَّخصيَّةِ ويَتفانَى مِنْ أَجلِ ذَلكَ. وهذا أَمرٌ لا نُلاحظُهُ عِندَ بَقيَّةِ الشُّعراءِ الَّذِيْنَ سَبقوهُ.

وفَوقَ هذا وذاكَ، كانَ أرستقراطيَّ التَّفكيرِ في شعرِهِ، وفي طريقةِ عيشِهِ، وفي سُلوكِهِ، ذا عَقلٍ راجحٍ تُزَيِّنُهُ الحكمةُ، وتُجمِّلُهُ الرَّزانةُ، ويَعتزُّ بِمكانَتِهِ ومَنزلتِهِ بينَ قَومِهِ، ويَحتاطُ في تَرَفِهِ بِالرَّصانَةِ والاتِّزانِ والتَّعفُّفِ، والبُعدِ عَنْ مُجاراةِ السَّوقَةِ، أَو مَدحِهِمْ أَو التَّخلُّقِ بِأَخلاقِهِمْ.

كانَ هذا الشَّاعِرُ أَوَّلَ مَنْ فَتحَ بابَ التَّكسبِ بِالشِّعْرِ عَنْ طريقِ مُلازمةِ المُلوكِ، والإِغراقِ في مَدحِهِمْ. وجَعلَ الشِّعْرَ حرفةً لِلتَّكسُّبِ تُغني الشَّاعرَ عَنِ السَّعيِ أَو الضَّربِ في مناكبِ الأَرَضِ مِنْ أَجلِ الرِّزقِ، بعدَ أَنْ كانَ الشعرُ نَوعاً مِنَ الفُكاهةِ والمُظارفَةِ الَّتِي لا يَجدُ الشَّاعِرُ ما يُقابِلُها مِنَ الآخرينَ سِوَى الشُّكر أَو الثَّناء والتَّعظيم.

كما نَستطيعُ القَولَ، عن هذا الشَّاعرِ، أَنَّهُ كانَ داهيَةً مُحَنَّكاً، وسِياسيّاً حاذِقاً ومُجرَّباً، استطاعَ أَنْ يُلوِّنَ شَخصيَّتَهُ واتِّجاهاتِهِ وأَغراضَ شعرِهِ حَسبَ ما تَقتَضيهِ السِّياسَةُ والظُّروفُ الَّتِي يَعيشُ في كَنفِها، وتَتجدَّدُ في معاشِهِ.

غيرَ أَنَّ دهاءَهُ ومُداهنَتَهُ لِلحُكَّامِ والمُلوكِ لَمْ يَكُنْ ذَلكَ كُلُّهُ مِنْ أَجلِ غاياتٍ خَسيسَةٍ فيها تَعدٍّ عَلى الحقوقِ، أَو مُخالَفةٌ لِما تَقتَضيهِ الأَخلاقُ الإِنسانيَّةُ والعربيَّةُ، وإِنَّما كانتْ مِنْ أَجلِ إِقرارِ بَعضِ جوانبِ الحقِّ، ورَفعِ الظُّلمِ، ورَدِّ العُدوانِ ليسَ إِلَّا! وكَذلِكَ مِنْ أَجلِ إِنماءِ نَزعاتِ الخيرِ والمَعروفِ في نُفوسِ المُلوكِ والحُكَّامِ.

وبِسَبَبِ حرصِهِ على ذَلكَ كُلِّهِ، أَحبَّهُ المُلوكُ والحُكَّامُ، وصارَ عندَهُمْ مِنَ أَربابِ الرَّأيِ ومِنْ أَهلِ المَشورَةِ، وأَصبح لِكَلمَتِهِ سُلطانٌ في أَسماعِ المُلوكِ والحُكَّامِ وقُلوبِهِمْ.

فَهلْ عَرفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعِرُ المُحلِّقُ في سَماءِ الشِّعْرِ والسِّياسَةِ في عَصرِهِ؟

إِنَّهُ «النَّابغةُ الذُّبيانيُّ»، شاعرُ المُلوكِ، وشاعرُ المَدحِ والاعتذارِ. فَتَعالوا معاً لِنجوبَ قَليلاً في فُصولِ حياتِهِ وشعرِهِ في هذِهِ العُجالَةِ السَّريعةِ.

❋ ❋ ❋

النَّابغَةُ الذُّبيانيُّ، شاعرٌ مِنَ الطَّبقَةِ الأُولَى مِنْ شُعراءِ الجاهليَّةِ المُخضرمينَ، واسمُهُ الحقيقيُّ «زيادُ بنُ مُعاويَةَ الذُّبيانيُّ» ويُلَقَّبُ بِـ «النَّابغةِ» لِنُبوغِهِ في قَولِ الشِّعْرِ، ولِغزارةِ شعرِهِ وتَفوُّقِهِ فيهِ عَلى مُعاصريهِ، ويُكَنَّى بِـ «أَبي أُمامَةَ».

لَمْ يَروِ لنا الرُّواةُ عَنْ ولادتِهِ ونَشأَتِهِ وصِباهُ شَيئاً، وكُلُّ ما وردَ إِلينا عَنْ نَشأَتِهِ، أَنَّهُ أَحبَّ في شَبابِهِ فَتاةً عَربيَّةً مِنْ إِحدَى قَبائِلِ غَطفانَ اسمُها «ماويَّةُ»، ولَكنَّهُ أَخفقَ في حُبِّهِ لَها، فَتزوَّجَها «حاتِمُ الطَّائيُّ» زَعيمُ قَبيلَةِ طَيِّ الَّذِي عَمَّ كرَمُهُ وجودُهُ العربَ جَميعاً، وصارَ مضربَ مثلٍ في الكرمِ والضِّيافَةِ في مُختلفِ العُصورِ والأَزمانِ.

ولِدَ «النَّابغةُ الذُّبيانيُّ» سنةَ (525) ميلاديَّةً عَلى وَجهِ التَّقريبِ، ونَشأَ وتَرعرعَ في قَبيلةِ ذُبيانَ الَّتِي كانتْ مِنْ أَشهرِ قَبائِلِ غَطفانَ الَّتِي عاشَتْ في الجزيرَةِ العربيَّةِ، وفي منطقةِ نَجدٍ عَلى وَجهِ التَّحديدِ.

ومِنَ الواضحِ أَنَّهُ كانَ لأَبيهِ «سَفيانَ الذُّبيانيِّ» منزلَةٌ عاليَةٌ وساميةٌ، وكانَ وَجيهاً في قَومِهِ،

يَدلُّ على ذَلكَ الحفاوَةُ العَظيمةُ الَّتِي حُظيَ بِها الشَّاعِرُ مِنْ قَومِهِ، ومِنَ الحُكَّامِ والمُلوكِ، ومِنَ القبائِلِ العربيَّةِ، ومِنَ الطَّبقةِ المُثقفةِ، ومِنَ النُّبلاءِ والفُضلاءِ العربِ، حيثُ جَعلوهُ مُحكَّماً بينَ الشُّعراءِ في المُنافساتِ الشِّعريَّةِ والأَدبيَّةِ الَّتِي كانتْ تَجري في سوقِ عكاظٍ في كُلِّ عامٍ، وتُشبِهُ المَهرجاناتِ والاحتفالاتِ الَّتِي تُقيمُها الحكوماتُ والدُّولُ حَديثاً.

ومِمَّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ «النَّابغَةَ» نَشأَ وتَرعرَعَ في عَصرٍ اشتدَّتْ فيهِ أُتونُ الحروبِ والأَحداثُ الدَّاميَةُ الَّتِي عَصفَتْ بِالجزيرَةِ العربيَّةِ، وأَخذَتْ بِقبائِلِها المُتناحرَةِ حينَها، ولاسيَّما في حَربِ «داحس والغَبراءِ» الَّتِي وَقعتْ بينَ قَبيلَتي «ذبيانَ وعَبسٍ»، وكَذلِكَ الحروبُ والمعاركُ الَّتِي كانتْ تقعُ بينَ ملوكِ الحيرَةِ، ومُلوكِ غَسَّانَ، والمُناوشاتُ الَّتِي جَرَتْ بينَ قبيلتِهِ وبينَ ملوكِ غَسانَ، ولَكنْ تَبقَى حربُ داحس والغبراءِ هيَ الحدثُ الأَهمُّ الَّذِي أَولاهُ الشَّاعِرُ مِنْ حياتِهِ وشعرِهِ وتَحرُّكاتِهِ الدُّبلوماسيَّةِ كُلَّ عنايَةٍ واهتمامٍ.

وكانَ مِنْ خبرِ هذهِ الحربِ أَنَّ عبساً وذبيانَ كانتا قَبيلتينِ أَولادَ عمٍّ يَنتمونَ جميعاً إِلى غَطفانَ، ويَعيشونَ جميعاً قَبائِلَ مُتجاورينَ في بَوادي نَجدٍ بِمحبَّةٍ وأَمنٍ وسَلامٍ، يَشدُّ بَعضُهُمْ أَزرَ بَعضٍ، حَتَّى وَقعَ بينَهُما ما وَقعَ، فَمزَّقَتِ الحربُ العاصفَةُ الَّتِي استَمرَّتْ أَربعينَ عاماً أواصرَ القُربَى بَينَهُما، ومُنيَ الطَّرفانِ ـ مِنْ هذهِ الحربِ ـ مِنَ الخسائِرِ في النُّفوسِ والأَرواحِ والأَموالِ ما لا يُحصَى ولا يُعدُّ!

وكانَ الباعثُ عليها سِباقاً مِنْ مُراهنَةٍ بينَ سَيِّدِ عبسٍ «قَيسِ بنِ زُهيرٍ»، وسَيِّدِ ذبيانَ «حُذيفةَ بنِ بَدرٍ»؛ لِلأَوَّلِ فَرسٌ اسمُهُ «داحس» ولِلثَّاني حِجرٌ اسمُها «الغبراءُ»، فَأَمرَ

«حذيفةُ» فَكمِنَ أَشخاصٌ لِيَردوا «داحس» عَنِ الغايَةِ فَتسبِقَ «الغبراءَ»، وهكذا كانَ. فَطالبَ «حُذيفةُ» بِحقِّ السِّباقِ (مئةَ ناقةٍ) فرفضَ «قيسٌ» مُحتجّاً عَلى ذَلكَ أَنَّ السَّبقَ لِفرسِهِ، فَنَشبَتْ بينَ الطَّرفينِ الحربُ المعروفَةُ بِحربِ السِّباقِ أَو حربِ «داحس والغبراءِ»، فَتحالفَتْ قبائِلُ أَسدٍ معَ ذبيان ضِدَّ عَبسٍ، وتَحالفَتْ قَبائِلُ بَني عامرٍ معَ عَبسٍ ضدَّ ذبيان.

وكانَ مِنْ أَبطالِ هذِهِ الحربِ «عنترةُ بنُ شَدَّاد»، كما كانَ «النَّابِغةُ الجعديُّ» الصَّوتَ الإعلاميَ المَسموعَ في هذهِ الحربِ، يَذودُ عَنْ قَبيلَتِهِ بِحنكتِهِ ودهائِهِ ويُعَزِّزُ مِنْ مُناصريها بينَ العربِ، وبِشكلٍ خاصٍّ عندَ مُلوكِ الحيرَةِ، فَكانَ في هذهِ الحربِ المُحامي اللَّامعَ المُدافِعَ عَنْ قَبيلتِهِ الَّذِي لا يُشَقُّ لَهُ رأيٌ أَو كلامٌ.

❋ ❋ ❋

قيلَ عَنِ النَّابغَةِ الجعديِّ أَنَّهُ شاعرُ المُلوكِ، وذلِكَ لِما عُرفَ عَنهُ بِاتِّصالِه بِملوكِ الحيرةِ، وملوكِ غَسانَ وقِيامِهِ بِمدحِهِمْ والتَّغني بِأَمجادِهِمْ وبُطولاتِهِمْ.

فقَدِ اتَّصلَ في البدايَةِ بِملوكِ الحيرَةِ، وأَوَّلَ ما مدحَ مِنهُمُ الملكَ «عمرو بنَ هندٍ» المُلقَّبَ بِـ «المُنذرِ» ونَظمَ لَهُ قَصيدةً بِمُناسبَةِ ارتِقائِهِ العرشَ بَعدَ أَبيهِ، فَكانَ يُلاقي الحفاوَةَ والتَّكريمَ عندَ الملكِ المُنذرِ وعندَ خُلفائِهِ مِنْ بَعدِهِ.

وعندما تَولَّى عرشَ الحيرَةِ الملكُ النُّعمانُ «أَبو قابوسٍ» قَرَّبَ «النَّابغةَ» إِليهِ وجعلَهُ نَديمَهُ وجليسَهُ وأَغدقَ عليهِ الهدايا والعَطايا، وذَلِكَ لِما لَمسَ مِنهُ مِنْ صدقٍ في مَحبَّتِهِ لمُلوكِ الحيرةِ وإِخلاصِهِ لَهُمْ، حتَّى صارَ لا يَأكلُ إِلَّا في آنيَةٍ مصنوعةٍ مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ.

وحينَها بالغَ «النَّابغةُ» في مدحِ الملكِ النُّعمانِ «أَبي قابوسٍ» مُبالغةً عظيمةً، حيثُ شَبَّهَهُ بِالشَّمسِ الَّتِي تكسفُ بِضيائِها الكواكبَ، فقالَ يَمدحُهُ:

فَإِنَّكَ شَمسٌ والمُلوكُ كواكبٌ إِذا طَلعَتْ لَمْ يَبدُ مِنهُنَّ كَوكبُ

لَكِنَّ الشَّاعرَ المادحَ لَمْ يَدُمْ عليهِ العيشُ الرَّغيدُ في ظلِّ النَّعيمِ المُقيمِ طَويلاً بِسببِ الحُسَّادِ والوشاةِ الَّذِيْنَ أَوغروا صَدرَ الملكِ عليهِ، وعَزَوا إِلى النَّابغَةِ أُموراً هو بَريءٌ مِنها، وزَعَموا أَنَّهُ تَطرَّفَ في مَدحِ زَوجَةِ الملكِ «النُّعمانِ» الَّتِي كانَ اسمُها «المُتَجرِّدَةَ» في «داليَّتِهِ» الَّتِي مَطلعُها:

مِنْ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أَو مُغتَدِ عَجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّدِ

وهَمَّ الملكُ بِقتلِ «النَّابغةِ»، ولَكنَّ حاجبَ النُّعمانِ أَسرَّ إِلى النَّابغةِ بِالأَمرِ ونَصحَهُ بِالهروبِ، فهربَ النَّابغةُ مِنَ الحيرَةِ ليلاً، فَلَمْ تَلحَظْهُ عيونُ الملكِ المُنبَثَّةُ في كُلِّ مَكانٍ، إِلَّا أَنَّ وَعيدَ المَلكِ لهُ بِالقتلِ كانَ يَقضُّ عليهِ مَضجَعَهُ[1]، فَلا يَقرُّ لَهُ قَرارٌ في اللَّيلِ ولا في النَّهارِ، ويُسيطرُ عليهِ الخوفُ، وبِشَكلٍ خاصٍّ خِلالَ ساعاتِ اللَّيلِ، فَيعمدُ إِلى وَصفِ حالتِهِ النَّفسيَّةِ في أَشعارِهِ.

اشتُهرَ «النَّابِغةُ الجَعديُّ» في وَصفِ لَيالي الخَوفِ مِنَ الوعيدِ الَّذِي كانَ يُلاحقُهُ مِنْ قِبَلِ الملكِ «النُّعمانِ»، حتَّى صارَ مضربَ مَثلٍ عندَ العربِ في ذَلكَ، فَصارَ يُقالُ عَنِ اللَّيلةِ الَّتِي يَكتَنفُها الخوفُ والقَلقُ: لَيلةٌ نابِغيَّةٌ.

---

(1) قضّ المضجع: اخشوشن كأن به قضضاً، فلا يهنأ فيه النوم.

ومِمَّا قالَهُ النَّابغَةُ في ذَلكَ:

وَعيدُ أَبو قابوسٍ في غَيرِ كُنهِهِ أَتاني ودوني راكسٌ[1] فالضَّواجعُ[2]

فَبتُّ كَأَنِّي ساورَتني ضَئيلَةٌ مِنَ الرّقشِ في أَنيابِها السُّمُّ ناقِعُ[3]

❋ ❋ ❋

بَعدَ هروبِهِ مِنَ الحيرَةِ، يَمَّمَ «النَّابغةُ» وَجهَهُ شَطرَ مُلوكِ غَسَّانَ يَستَجدي مِنهُمُ الحمايَةَ والنَّصرَةَ، فَلاقَى عندَهُمْ كُلَّ تَرحيبٍ وتَكريمٍ وإِجلالٍ، ووَجدوا في انضمامِ النَّابغةِ إِليهِمْ مَكسباً سِياسيّاً وإِعلاميّاً يُقوي نُفوذَهُمْ على نُفوذِ خُصومِهِمْ مُلوكِ الحيرَةِ، حيثُ كانَتِ المَملكتانِ تَتصارعانِ عَلى مَدِّ نُفوذِهما في بِلادِ العربِ، وكانَ مُلوكُ الحيرَةِ يَميلونَ إِلى الفُرسِ، ومُلوكُ غَسَّانَ يَميلونَ إِلى الرُّومِ.

في مَضاربِ غَسَّانَ عاشَ «النَّابغةُ» يَنعمُ بِالأَمنِ والسَّلامِ، ويَحظَى بِالتَّبجيلِ والاحترامِ، ويَتَفرَّدُ بِمكانَةٍ موقَّرةٍ عِندَ بَني غَسَّانَ ومُلوكِهِمْ؛ إِذْ جَعلَهُ الحُكَّامُ هُناكَ مُستشارَهُمُ الخاصَّ، ومِنْ أَهلِ الرَّأيِ والمَشورَةِ لَديهِمْ، عِلماً أَنَّهُ كانَ بينَ بَني غَسَّانَ وبَني ذبيانَ ـ قَبيلةِ النَّابغةِ ـ مُناوشاتٌ ومُساجلاتٌ حربيَّةٌ؛ إِذْ كانتْ قَبيلَةُ ذبيانَ إِذا أَجدَبَتْ أَرضُها، وغَزاها القَحطُ، وأَمحَلَتْ سَماؤُها، تَغيرُ عَلى أَطرافِ مَملكَةِ غَسَّانَ، ويَرعونَ ما هُنالِكَ مِنْ كلأ، أَو

---

(1) راكس: وادٍ

(2) الضواجع: موضعٌ أَو مكانٌ.

(3) سمّ ناقع: قاتل.

يَسوقونَ ما يُصادفونَهُ أَمامَهُمْ مِنْ نَعَم. فيَنبعثُ القِتالُ بينَ الفَريقينِ بينَ الفَترةِ والأُخرَى، وكانَ يُساعدُ الذُّبيانيينَ عَلى ذَلِكَ بَنو أَسدٍ أَنصارُ الحيرَةِ.

وهُنا، لعبَ «النَّابغةُ» دورَ الوَسيطِ لِتَحقيقِ الصُّلحِ بينَ قَبيلَتِهِ، وبينَ الغَساسنَةِ، وقَدْ أَفلحَ غيرَ مرَّةٍ في اسْتدراجِ العَفوِ مِنْ مُلوكِ غَسَّانَ لِصالِحِ قَبيلَتِهِ.

ومِنْ ثمَّ، كانَ «النَّابغةُ» بِدورِهِ وَفيّاً لِبني غَسَّانَ، بادلَهُمُ الحُبَّ بِالحُبِّ، ومَدحَهُمْ بِما يَليقُ بمُعامَلَتِهِمْ لَهُ، وبِما كانوا لَهُ أَهلاً، فقالَ فيهِمْ أَجملَ القَصائِدِ والأَشعارِ وهوَ يُؤدي واجبَ الشُّكرِ لَهُمْ؛ إِذْ أَنزلوهُ مَنزلَ الأَخِ لَهُمْ، فقالَ يَمدحُهُمْ:

مُلوكٌ وإِخوانٌ إِذا ما أَتيتُهُمْ أَحكمُ في أَموالِهِمْ وأُقرَّبُ
كَفعلِكَ في قَومٍ أَراكَ اصطَنَعتَهُمْ ولَمْ تَرَهُمْ في شكرِ ذَلكَ أَذنبوا

ويَقولُ عنهُمْ مُعدِّداً سَجاياهُمْ مِنْ شَجاعةٍ وقُوَّةٍ وعقلٍ ودينٍ:

إِذا ما غَزَوا بِالجيشِ حَلَّقَ فَوقَهُمْ عَصائِبُ طَيرٍ تَهتدي بِعصائبِ
ولا عيبَ فيهِمْ غيرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائِبِ
لَهُمْ شيمةٌ لَمْ يُعطِها اللهُ غيرَهُمْ مِنَ الجودِ والأَحلامِ غيرُ عواذبِ
مجلَّتُهُمْ[1] ذاتُ الإِلهِ ودينُهمْ قَويمٌ فَما يَرجونَ غيرَ العَواقبِ

وبِالإِجمالِ أَطلقَ المؤرِّخونَ والرُّواةُ على شعرِهِ الَّذِي قالَهُ في بِلاطِ الغَساسنَةِ

(1) مجلّتهم: أَي: الكتاب الذي كانَ الغساسنة يدينون به وهو الإنجيل لأنهم كانوا نصارى.

بِـ «الغَسَّانياتِ» تَمييزاً لَها عَنْ بَقيَّةِ شعرِهِ، سواءٌ فيما قالَهُ في مَدحِ بني غَسَّانَ وتَمجيدِ سَجاياهُمْ وبُطولاتِهِمْ، أَو فيما قالَهُ في غيرِ ذَلكَ.

وبِالرَّغمِ مِنَ الحياةِ الرَّغيدةِ الَّتِي عاشَها «النَّابغةُ» في بلاطِ الغَساسنةِ، كانَ كثيراً ما يَأخذُهُ الشَّوقُ والحنينُ إِلى الحيرةِ، ويَتمنَّى العودةَ إِلى كنفِ ملكِ الحيرةِ «النُّعمانِ أَبي قابوسٍ» والعيشَ في رحابِهِ، وكثيراً ما كانَ يَتذكَّرُ تلكَ اللَّيالي المِلاحَ الَّتِي قَضاها يُنادمُ الملكَ هُناكَ.

وكانَ أَشدَّ ما يُزعجُهُ ويَعضُّ نياطَ قلبِهِ أَنَّ الوشاةَ الَّذِيْنَ أَوقعوا بينَهُ وبينَ «النُّعمانِ» يَنعمونَ آمنينَ في بلاطِ النُّعمانِ، وهوَ بعيدٌ عَنِ الحيرةِ، خائفٌ على نفسِهِ وحياتِهِ مِنْ نَقمةِ «النُّعمانِ» ووَعيدِهِ!

ولِهذا كانتْ نفسُهُ تَجيشُ بِالعتابِ واللَّومِ على «النُّعمانِ» لأَنَّهُ صَدَّقَ الوشاةَ عندما رَموهُ بِتُهمٍ باطلةٍ، فَتارةً كانَ يَقولُ مُنبِّهاً «النُّعمانَ» إِلى كذبِ الوشاةِ:

لَئِنْ كُنتَ قَدْ بُلِّغتَ عَنِّي خيانَةً ... لَمُبَلِّغُكَ الواشي أَغشُّ وأَكذَبُ

وتارةً أُخرَى كانَ يُخاطبُه مُستجدياً منهُ العفوَ:

أَتُوعِدُ عبداً لَمْ يَخُنكَ أَمانَةً ... ويُترَكُ عبدٌ ظالمٌ وهوَ ظالعُ[1]

فإِنْ أَكُ مَظلوماً فَعَبدٌ ظَلَمتَهُ ... وإِنْ تَكُ ذا عُتبَى فَمثلُكَ يعتبُ

❋ ❋ ❋

(1) ظالع: مائل عن الحقّ.

كانَ الهمُّ الأكبرُ عندَ «النَّابغةِ» أَنْ يُبَرِّرَ أَمامَ «النُّعمانِ» ملكِ الحيرةِ، أَسبابَ مدحِهِ لِلغساسنةِ الَّذِيْنَ آوَوهُ وأكرموهُ، في الوَقت الَّذِي كانَ «النُّعمانُ» يَعتبرُهُمْ خَصمَهُ اللَّدودَ، فَاسْتطاعَ بِحنكَتِهِ ودهائِهِ أَنْ يُقنِعَ «النُّعمانَ» بِأَنَّهُ كانَ مُحِقّاً في مَدحِهِمْ، فَبيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ جعلوهُ أَخاً لَهُمْ يَحكمُ في أَموالِهِمْ، تَماماً كما كانَ يَفعلُ «النُّعمانُ» معَ مَنِ اجتباهُمْ وحباهُمْ بِالفضلِ والمعروفِ، وقَرَّبَهُمْ منهُ، فَشكروا فَضلَهُ عليهِمْ:

مُلوكٌ وإِخوانٌ إِذا ما أَتيتُهُمْ أَحكمُ في أَموالِهِمْ وأُقرَّبُ

كَفعلِكَ في قَومٍ أَراكَ اصطَنَعتَهُمْ ولَمْ تَرَهُمْ في شكرِ ذَلكَ أَذنبوا

وعندما وَجدَ «النَّابغةُ» الفُرصَةَ سانحَةً لَهُ لِلعودةِ إِلى الحيرَةِ، وذَلكَ بعدَ أَنْ بَلغَهُ رغبَةُ «النُّعمانِ» بعودتِهِ ودَّعَ الغَسانيينَ، وعادَ إِلى الحيرةِ يَصحبُهُ رَجلانِ مِنْ فُزارةَ كانا من ندماءِ «النُّعمانِ»، وتَربُطهُما معهُ علاقةٌ وَطيدةٌ.

ومِمَّا يُروى في هذا الشَّأنِ أَنَّ «النَّابغةَ» كتبَ قَصيدتَهُ الدَّاليَّةَ الَّتِي يَقولُ في مَطلعِها:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعلياءِ فَالسَّندِ أَقوَتْ[1] وطالَ عليها سالفُ الأَبدِ

ودَسَّ بِها إِلى «النُّعمانِ» مَعَ إِحدَى القِيانِ لِتغَني أَبياتاً منها أَمامَ «النُّعمانِ»، وكانَ «النَّابغةُ» حاضراً في المجلسِ مُتَخَفٍّ بينَ الفزاريَين، فَلمَّا سمعَ «النُّعمانُ» الشِّعْرَ قالَ: أُقسمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَشعرُ «النَّابغةِ»! وسَأَل عنهُ، فَأُخبِرَ بِهِ، فَأَمَّنهُ وقَرَّبَهُ إِليهِ، وأَحسنَ وِفادتَهُ أَكثرَ مِنَ الماضي.

---

(1) أَقوت: خلت من أهلها.

غيرَ أَنَّ دوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ. فَلَمْ يَكدِ «النَّابغةُ» يَهنأُ بِعودتِهِ إِلى بلاطِ «النُّعمانِ» حتَّى فوجئَ بِأَمرٍ لَمْ يَكُنْ بِبالِهِ ولا بِحُسبانِهِ، إِذْ سُرعانَ ما غَضبَ مَلكُ الفُرسِ «كسرَى» عَلى حليفِهِ ملكِ الحيرةِ «النُّعمانِ» وأَمرَ بِإِلقاءِ القبضِ عليهِ، وقَتلَهُ.

فَماتَ «النُّعمانُ» مَقتولاً تحتَ أَرجلِ الفيلَةِ سنةَ (602) ميلاديَّةً، فَحزنَ عليهِ «النَّابغةُ» حزناً مُبرحاً، ورَثاهُ في شعرِهِ رثاءً مريراً:

فَإِنْ تَحيَا لا أَملَلْ حياتي وإِنْ تَمتْ فَما في حياةٍ بَعدَ موتِكَ طائِلُ

أَدركَ «النَّابغةُ» بَعدَ مَقتلِ «النُّعمانِ» أَنَّ السِّياسَةَ لا يؤمَنُ جانبُها، ولا يَسلَمُ تابِعُها، فقرَّرَ البُعدَ عَنِ الحُكَّامِ والمُلوكِ، وعادَ إِلى أَحضانِ قَبيلتِهِ لِيَقضيَ فيها آخرَ أَيَّامِ حياتِهِ، فَوافتْهُ المَنيَّةُ سنةَ (604) ميلاديَّةً بعدَ حياةٍ طويلةٍ، حافلةٍ بِالأَحداثِ الجِسامِ، مليئَةٍ بِالطَّرائِفِ والمَخاوفِ والأَخطارِ.

هذا، وقدْ حفظَ لَنا التَّاريخُ مِنْ شعرِ «النَّابغةِ» ديواناً جمعَ فيهِ الأَصمعيُّ (838) بيتاً في (24) قصيدة، ومِنْ أَشهرِ قَصائِدِهِ بائيَّتُهُ الَّتي مَطلعُها:

كِليني لَهمٍّ يا أُميمةَ ناصبِ وليلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكبِ

تَطاوَلَ حتَّى قُلتُ ليسَ بِمُنقضٍ وليسَ الَّذِي يَرعَى النُّجومَ بِآيبِ

ومُعلَّقتُهُ الدَّاليَّةُ الَّتي مَطلعُها:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعلياءِ فَالسَّندِ أَقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأَبدِ

وقفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها عَيَّتْ جَواباً وما بِالرَّبعِ مِنْ أَحدِ

ثُمَّ رائِيَّتُهُ الَّتي مَطلعُها:

عوجوا فَحيُّوا لِنُعْمٍ دمنَةَ الدَّارِ ماذا تُحيونَ مِنْ نُؤيٍ وأَحجارِ

أَقوَى وأقفرَ مِنْ نعمٍ وغيَّرَهُ هَوجُ الرِّياحِ بِها والتُّربِ، مَوَّارِ

ولِشعرِ النَّابغةِ قيمةٌ تاريخيَّةٌ عظيمةٌ؛ إِذ يُطلعُنا عَلى أَحداثِ تلكَ المرحلةِ الَّتي عاشَها، كما يُطلعُنا على حياةِ القبائِلِ العربيَّةِ البَدويَّةِ وعلى صِراعاتِها وحروبِها وعاداتِها وأَحلافِها وكِفاحِها معَ الطَّبيعةِ أَيَّامَ الشِّدةِ والقحطِ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مِمَّ أَخرجَ النَّابغةُ الشِّعْرَ؟

2 ـ كيفَ فَتحَ النَّابغةُ بابَ التَّكسُّبِ بِالشعرِ؟

3 ـ ما اسمُ النَّابغةِ الحقيقيُّ، ولماذا لُقِّبَ بِالنَّابغةِ؟

4 ـ هَلْ تَزوَّجَ النَّابغةُ مِمَّنْ أَحبَّها، ولماذا؟

5 ـ لِماذا غَمرَ الملكُ أَبو قابوسٍ النَّابغَةَ بِالهدايا؟

6 ـ كيفَ عاملَ الغسَّانيونَ النَّابغةَ؟

7 ـ ماذا قرَّرَ النَّابغةُ بعدَ مقتلِ النُّعمانِ؟

الأعشَى الأكبرُ
سَاعرُ الوضفِ والـمَدحِ
(530 ـ 629م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّةَ شاعرٍ عربيٍّ مُخضرَمٍ مِنْ شعراءِ الجاهليَّةِ، لا يَقلُّ أَهميَّةً في شعرِهِ عمَّنْ سَبقوهُ، كانَ لَهُ أَثرٌ كبيرٌ في نَهضَةِ الحركةِ الشِّعريَّةِ عندَ العربِ قَديماً.

كانَ هذا الشَّاعِرُ نِتاجَ الحياةِ البَدويَّةِ الصَّاخبَةِ بِاللَّهوِ والشَّرابِ، والحلِّ والتَّرحالِ، والمدحِ والهجاءِ، الَّتِي أَلفها الإِنسانُ العربيُّ في الجاهليَّةِ في باديَتِهِ وصحرائِهِ، حيثُ كانتِ السِّمةُ الأَبرزُ لِحياتِهِ وَقتئذٍ هيَ التَّرفُ والمُجونُ، وغالِباً ما كانَ يَأتي الشِّعرُ منهُ انعكاساً لِحياةِ التَّرفِ والرَّخاءِ.

وإِذا كانَ الشَّيءُ بِالشَّيءِ يُذكرُ، فَلا بُدَّ أَنْ نُشيرَ إِلى أَنَّ الشِّعْرَ ـ فَضلاً عَنْ هذا ـ تَغلغلَ

في ثَنايا حياةِ الإِنسانِ العربيِّ، وسَيطرَ عَلى أَحلامِ العربِ، وتَحكَّمَ في عُلاقاتِهِمْ فِيما بَيْنَهُم، فَكانَ بيتٌ مِنَ الشِّعْرِ يُقيمُ الدُّنيا ويُقعدُها، ورُبَّما قَصيدةٌ قالَها شاعرٌ أَدَّتْ إِلى عَداوةٍ أَو بَغضاءَ، أَو حربٍ بينَ قَبيلتينِ.

وشاعرُنا هذا، كانَ لِشعرِهِ على النَّاسِ وعقولِهِمْ سُلطانٌ لا يُوصَفُ، وهَيبَةٌ لا تُقاسُ ولا تُحدُّ؛ لأَنَّهُ مِنَ الشُّعراءِ الَّذِيْنَ اتَّخذوا الشِّعْرَ مَكسباً لا مَغرماً، ومَطيَّةً لا هدفاً أَو غايَةً بِحدِّ ذاتِها؛ إِذْ أَجادَ في شعرِهِ وأَبدعَ وتَفنَّنَ، فَكانَ يُطلقُ الشِّعْرَ عَلى السَّجيَّةِ، ولِهذا أَتى شعرُهُ بِعفويَةٍ صادقةٍ، ليسَ فيهِ مِنْ حنكةِ الدَّهاءِ شَيئاً، وليسَ فيهِ مِنَ الأَطماعِ الخَسيسَةِ أَدنَى مَطلبٍ.

كانَ الشِّعرُ عِندَهُ أَداةً لِلكَسبِ والرِّزقِ، فَكانَ يَبذُلُ شعرَهُ لِكُلِّ طالبِ مَديحٍ أَو شُهرَةٍ بينَ النَّاسِ، أَو مُبتاعِ هِجاءٍ لأَحدٍ لا يُحبُّهُ أَو يَروقُ لهُ ويُريدُ منهُ الانتقامَ، لَكنَّ هذا الشَّاعرَ كانَ لا يُداهنُ ولا يُجاملُ ولا يَقولُ في شعرِهِ إِلَّا حقاً. وكانَ لا يُغالي في مدحِهِ، ولا يَتوخَّى في ممدوحٍ إِلَّا الصِّفاتِ والخِلالَ الَّتي يَجدُها فيهِ حَقيقةً، مِنْ صدقٍ وكرمٍ ومُروءَةٍ ونَجدةٍ.

ولعلَّ ما يُميِّزُ هذا الشَّاعرَ عَنْ غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ طُلَّابِ المالِ والسُّؤدُدِ والشُّهرةِ، وإِنَّما عاشَ عَلى هَوى نَفسِهِ، لا يُبالي مِنَ الحياةِ، أو مِنْ صروفِ الدَّهرِ شَيئاً، بَلْ لَمْ يَكنْ يَعنيهِ مِنْ أَمرِ هذا العالمِ كُلِّهِ سِوَى كَأسِ الشَّرابِ، أو ليلَة ماجنَة يَقضيها بينَ الخُلَّانِ والأَحبَّةِ والجواري والقيانِ، عَلى عادةِ العربيِّ في جاهليَّتِهِ عندما يَألفُ حياةَ اللَّهوِ والتَّرفِ والمُجونِ.

ومَعَ ذَلِكَ كانَ لِشعرِهِ تَأثيرٌ قَويٌّ، عَلى عُقولِ وأَحلامِ سامعيهِ، ـ وكما وَصفَهُ المُؤرِّخونَ ـ كانَ لا يَمدحُ أَحداً إِلَّا رَفعَهُ، ولا يَهجو أَحداً إِلَّا وَضعَهُ، فَهوَ مِنْ ذَوي الخبرةِ والفِطنةِ والحِكمةِ، يَعرفُ مِنْ أَيِّ مدخلٍ سَيلجُ إِلى العقولِ والأَفهامِ، إِذا مَدحَ أَو هَجا.

فَهلْ عرفْتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعِرُ المُجيدُ و«الماجنُ» كما وَصفَهُ المُؤرِّخونَ؟

إِنَّهُ الأَعشَى الأَكبرُ، شاعرُ التَّرفِ والمَديحِ والوَصفِ.

فَتعالوَا الآنَ لِنَطَّلعَ عَلى أَهمِّ ما في حياتِهِ مِنْ مواقفَ وأَحداثٍ.

❋ ❋ ❋

ولدَ الأَعشَى حوالي سنة (530) ميلاديَّةً، في إِحدى قُرَى اليَمامَةِ في منطقة نَجدٍ، فَهوَ عربيٌّ يَمانيٌّ بَكريٌّ مِنْ غَطفانَ، واسمُهُ الحقيقيُّ: «أَبو بَصيرٍ، مَيمونُ بنُ قيسٍ البَكريُّ».

نَشأَ وَتَرَعْرَعَ في قَرْيَةِ «مَنفوحةَ» بِاليَمامَةِ في بيتِ علمٍ وأَدبٍ، و«مَنْفُوحَةُ» كانَ راويَةً لِخالِهِ الشَّاعرِ المَعروفِ «المُسيِّبِ بنِ عَلسٍ».

في شَبابِهِ نزعَ «الأَعشَى» نَحوَ حياةِ التَّرفِ والمُجونِ، وأَغرَتْ بِهِ حياةُ الفَسادِ واللَّهوِ، وأدمنَ شُربَ الخمرِ، وانصرفَ إِلى اللَّعبِ والقِمارِ، يَصرفُ مالَهُ بِلا اكتراثٍ أَو حسابٍ، فَأَسرفَ في ذَلكَ كُلِّهِ حَتَّى أَتلفَ جميعَ مالِهِ، وأَحاطَتْ بِحياتِهِ الحاجَةُ والعَوزُ والفقرُ.

اندفَعَ الأَعشَى يَهيمُ في البُلدانِ والأَصقاعِ فَجابَ أَنحاءَ الجزيرةِ العربيَّةِ كُلّها وهوَ

مُتنقِّلٌ مِنَ اليَمامةِ إلى بِلادِ اليَمنِ، ثُمَّ إلى بِلادِ الحجازِ، والحيرةِ وعمانَ وفلسطينَ والعراقِ وفارس، لا يَتركُ مَلكاً أو أميراً، إلَّا قَصدَهُ يَستَجدي رِفدَهُ ويَسأَلُهُ.

والغريبُ في الأمرِ، أنَّ الأعشَى كانَ يَلقَى لَهُ أنصاراً، وجمهوراً يَسمعونَ شعرَهُ في كُلِّ عَصرٍ وآنٍ أينما حَلَّ أو ارتَحلَ، ويَجدُ مَنْ يَصدُقُهُ في كُلِّ ما يَقولُ سواءٌ كانَ مَدحاً أو هجاءً، فَكانَ لَهُ حُضورُهُ الحيُّ، وأَثرُهُ الكبيرُ عَلى أهلِ زمانِهِ، حَتَّى قيلَ في حَقِّهِ: إنَّهُ ما مَدحَ أحداً في الجاهليَّةِ إلَّا رَفعَهُ، ولا هَجا أحداً إلَّا وَضعَهُ.

فَكانَ قسمٌ كبيرٌ مِنَ النَّاسِ يُحاولونَ استِمالَتَهُ إليهِمْ كَي يَمدحَهُمْ فَيرفَعَهُمْ. ويُمكنُنا أنْ نَذكُرَ مِنْ هذا القبيلِ قِصَّةَ ذَلكَ الرَّجلِ الَّذِي كانَ يُدعَى «المُحلِّقُ الكِلابيُّ»، حيثُ ذَكرَ الرُّواةُ أنَّهُ كانَ ذا بَناتٍ، قَدْ عَنسنَ[1] عليهِ، فَتعرَّضَ لِلشَّاعرِ الأعشَى ونَحرَ لَهُ ناقَةً إكراماً مِنهُ وتَفَضُّلاً، فَلَمَّا رَحلَ الأعشَى مِنْ عندِهِ ووافَى سوقَ عكاظٍ في موسمِ الشِّعْرِ جعلَ يَنشدُ قَصيدةً مَدحَ بِها المُحلِّقَ، ووصفَ كرمَهُ وإحسانَهُ إليهِ، وعندما سَمعَ النَّاسُ قَصيدةَ الأعشَى في مدحِ المُحلِّقِ تَسابَقوا إلى بَناتِهِ يَطلُبُونَهنَّ لِلزَّواجِ. وما هيَ إلَّا مُدَّةٌ وَجيزةٌ حَتَّى تَزوَّجَتْ بَناتُ المُحلِّقِ عَنْ آخرِهنَّ، وأَصبَحَ المُحلِّقُ غَنيّاً بعدَ فقرٍ.

فَهذِهِ القِصَّةُ تُفصِحُ لَنا عَمَّا كانَ يَتمتَّعُ بِهِ الأعشَى مِنْ مَنزلَةٍ بينَ النَّاسِ، وما كانَ لِشعرِهِ مِنْ سُلطانٍ عَلى عقولِ سامعيهِ، فَكانَ شِعْرُهُ يَرفَعُ الوَضيعَ، ويَضعُ الرَّفِيعَ.

❋ ❋ ❋

(1) عنسن: أي: صرنَ عانساتٍ وكبرنَ في العمرِ ولم يتزوجن.

استطاعَ الأَعشَى بِأَسفارِهِ الطَّويلةِ أَنْ يُكوِّنَ لِنفسِهِ ثَقافةً واسعةً وزاخرةً بِمعارفِ الشُّعوبِ والأُمَمِ والقَبائِلِ وبِشكلٍ خاصٍّ الفُرسِ والعجمِ.

نَلمسُ كُلَّ ذَلكَ مِنْ خِلالِ وَصفِهِ لِتلكَ الرِّحلاتِ الطَّويلةِ والكثيرةِ، وإِشارَتِهِ إِلى أَسماءِ البُلدانِ والأَصقاعِ الَّتِي زارَها وأَقامَ فيها، وكذلِكَ مِنْ خِلالِ حَديثِهِ عَنِ الأَحداثِ الَّتِي لاقاها خِلالَها، فَمثلاً لِنَسمَعْهُ وهوَ يَصفُ بَني قُمَيئَةَ بَعدَ أَنْ خَبرَهُمْ وعرفَ عريكتَهُمْ فَيقولُ:

إِنَّ بَـنـي قَـمـيـئَـةَ بـنِ سَـعـدٍ كُـلَّـهـمُ لَـمِـلـصـقٍ وعَـبـدِ
أَدنَـى لِـشَـرٍّ مِـنْ كِـلابِ عَـقـدِ وهُـمْ أَذلُّ مِـنْ كِـلابِ عَـقـدِ
يَـغـزونَ بـيـنَ وَبـر ومَـدٍّ عِـبـدانُ بـيـنَ عـاجـزٍ ووَغـدِ
إِنْ يُبصروا قَبراً حديثَ العهدِ ينبشوا فيهِ احتقارَ الخُلدِ
انْقرْ فَقَدْ بَلغتَ قَعرَ اللَّحدِ وهـامَـةً وشـقَّـةً مِـنْ بُـردِ

ومِنْ ثَمَّ كانَ حالُ الأَعشَى كَحالِ النَّابغةِ الذُّبيانيِّ في التَّكسُّبِ في الشِّعْرِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُفرِّقْ بينَ الشَّريفِ والوَضيعِ في مَدحِهِ، ولا بينَ المُلوكِ والسُّوقَةِ، ومدحَ كُلَّ مَنْ أَغدقَ عليهِ المالَ، ولِهذا قيلَ عَنهُ: «أَوَّلُ مَنْ سَأَلَ بِشعرِهِ».

وها هوَ ذا يَقولُ عَنْ نَفسِه:

وما زلتُ أَبغي المالَ مُذْ أَنا يافعٌ وَليداً وكهلاً حينَ شِبتُ وأَمردا
وأَبتذلُ العَيسَ المراقيلَ تَغتلي مسافةَ ما بينَ النَّجيرِ فَصرخدا

ولعلَّ أَهمَّ ما يُميِّزُ شعرَ الأَعشَى عَنْ غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ، أَنَّ لَهُ إِيقاعاً جميلاً، وموسيقَى عذبَةً، تَنسَجمُ معَ أَذواقِ النَّاسِ، وتَستَسيغُها أَسماعُهُمْ، فَغَنَّى شعرَهُ المُغنُّونَ، وأَنشَدَهُ المُنشدونَ، كما كانَ يُغَنَّى بِشعرِهِ في مَجالسِ المُلوكِ، حَتَّى سُمِّي: «صَنَّاجةَ العربِ».

فَها هوَ يَصفُ الخمرَ بِأُسلوبٍ لا يَخلو مِنَ الطَّرافَةِ والدِّعةِ والمُلاطفةِ:

فَقُلتُ لَهُ: هاتِها بِأَدماءَ مِنْ حَبلٍ مُقتادِها
فَقالَ: تُريدونَ تِسعةً وليسَتْ بِعدلٍ لأَندادِها
فَقامَ فَصبَّ لَنا قَهوةً تُسكِنُنا بَعدَ إِرعادِها

فإِذا طُرِبَ الأَعشى أَسكرَ النُّفوسَ بِشعرِهِ السَّلسِ الصَّادقِ، ولِهذا قيلَ: «أَشعرُ النَّاسِ امرؤُ القَيسِ إِذا رَكبَ، وزُهيرٌ إِذا رَغبَ، والنَّابِغةُ إِذا رَهبَ، والأَعشَى إِذا طربَ».

ومِنْ شعرِهِ الغنائي في بَني قُلابةَ قَولُهُ:

أَلَمْ تَرَوا لِلعجبِ العجيبِ إِنَّ بَني قُلابَةَ القُلوبِ
أَهلُ النُّهَى والحسبِ الحسيبِ والخَمرِ والتِّرياقِ والزَّبيبِ

❋ ❋ ❋

ولِلأَعشَى شعرُهُ الغَزليُّ الَّذِي صدرَ عَنْ عاطفةٍ صادقَةٍ ورَقيقةٍ نَتَجَتْ عمَّا فاضَ بِهِ قلبُهُ مِنْ عشقٍ وهيامٍ، وما جاشَ بِهِ صَدرُهُ منْ وَلعٍ وشَوقٍ، وهوَ يَقفُ عَلى أَطلالِ الحبيبَةِ أَو يَرتَحلُ عَنْ مَضاربِها، فَينطلقُ مِنهُ الشِّعرُ بِأُسلوبٍ عَذبٍ، وألفاظٍ رَشيقةٍ سَهلةٍ جزلَةٍ.

ومِنْ أَشهرِ ما قالَهُ في الغَزلِ الأَبياتَ الَّتِي في مطلعِ مُعلَّقَتِهِ «اللَّاميَّةِ»:

وَدِّعْ هُـريـرةَ[1] إنَّ الـرَّكـبَ مُـرتـحـلٌ وهَـلْ تُـطـيـقُ وداعـاً، أيُّـهـا الـرَّجـلُ؟
غَرّاءُ[2] فَرعاءُ[3] مَصقولٌ عَوارضُها[4] تَمشي الهوينا كما يَمشي الوَجي[5] الوَجِلُ[6]
كَـأَنَّ مـشـيَـتَـهـا مِـنْ بـيـتِ جـارَتِـهـا مرُّ الـسَّـحـابَـةِ، لا رَيـثٌ، ولا عَـجـلُ
لـيـسَـتْ كَـمَـنْ يَـكـرهُ الجيرانُ طَلعَتَها ولا تَـراهـا لِـسـرِّ الـجـارِ تَـخْـتَـتِـلُ

كما أولعَ «الأَعشَى» ولعاً شَديداً بِالخمرِ، فَأَفردَ لَها الكثيرَ مِنْ شعرِهِ، وأَبدعَ في وَصفِها ومَهَّدَ في ذَلكَ لِما قيلَ فيها مِنْ بَعدُ في شعرِ الأَخطلِ وشعرِ أَبي النَّواسِ، فَقلَّ أنْ تَجدَ قَصيدةً مِنْ قَصائِدِهِ ليسَ فيها وَصفٌ لِلخمرِ، حَتَّى أَصبحَ لَهُ شَخصيَّتُهُ الخمريَّةُ تُميِّزُهُ عَنْ غيرِهِ مِنَ شُعراءِ الجاهليَّةِ.

ويَرى النُّقادُ القُدامَى والمُحدثونَ أَنَّ «الأَعشَى» فاقَ كُلَّ الشُّعراءَ في وَصفِ الخمرِ، وفي تَصويرِها، فَمِنْ ذَلِكَ قَولُهُ:

وكَـأْسٍ شَـرِبـتُ عَـلـى لَـذَّةٍ وأُخـرَى تَـداويـتُ مِـنـهـا بِـهـا
لِـكَـي يَـعـلـمَ الـنَّـاسُ أَنِّـي امـرؤٌ أَتـيـتُ الـمَـعـيـشَـةَ مِـنْ بـابِـهـا

---

(1) هريرة: جاريَةٌ سوداءُ كانَ يَعشقُها الأَعشَى.
(2) غراء: بيضاء واسعة الجبين.
(3) فَرعاء: الطويلة الشعر.
(4) مصقول عوارضها: مصقولة الأسنان الرّباعية والأَنياب.
(5) الوجي: الَّذِي يشتكي حافره ولم يحف.
(6) الوجِل: الذي يتوحّل بالطين.

ويَقولُ أَيضاً:

وكَأسٍ كعينِ الدِّيكِ باكرتُ حَدَّها بِفتيانِ صدقٍ والنَّواقيسُ تَضربُ

❋ ❋ ❋

عاشَ الأَعشَى عمراً مَديداً ما يُقاربُ (100) سنة، وقَدْ أَدركَ الإِسلامَ، وقالَ أَبياتاً في مدحِ الرَّسولِ الكريم ﷺ، ولَكنَّهُ لَمْ يُسلِمْ، ورُبَّما كانَ السَّببُ في ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ شَيخاً كبيراً طاعناً في السِّنِ فَلَمْ يَتسَنَّ لَهُ مَزيداً مِنَ الوَقتِ لِلاطِّلاعِ عَلى تَعاليمِ الدينِ الإِسلاميِّ الحَنيفِ، أَو لِيقفَ عَلى شَيءٍ مِنَ التَّنزيلِ الحكيمِ.

وقَدْ رَوَى هشامُ بنُ القاسمِ الغَزيُّ ـ وكانَ عَلَّامةً بِأمرِ الأَعشَى ـ أَنَّهُ وَفدَ إِلى النَّبيِّ ﷺ ومَدحهُ بِقصيدةٍ مَطلعُها:

أَلَمْ تَكتحِلْ عيناكَ ليلةَ أَرمدا وعادكَ ما عادَ السليمَ المسهَّدا

وما ذاكَ مِنْ عشقِ النِّساءِ وإِنَّما تناسَيتُ قبلَ اليَومِ خِلَّةَ مَهدَدا

وفيها أَيضاً يَقولُ لِناقَتِهِ:

أَلا أَيُّهذا السَّائلي أَينَ يَمَّمتَ؟ فَإِنَّ لَها في أَهلِ يَثربَ موعدا

مَتَّى تُناخي عندَ بابِ ابنِ هاشمٍ تُريحي وتَلقَيْ مِنْ فَواضلِهِ يدا

نَبيٌّ يَرَى ما لا تَرونَ، وذِكرُهُ أَغار في البِلادِ لَعمري وأَنجدا

ولَمَّا أَزمعَ الخُروجَ إِلى المدينةِ المنوَّرةِ يُريدُ إِشهارَ إِسلامِهِ بينَ يَديِّ النَّبيِّ ﷺ، بلغَ

خَبرَهُ قُريشٌ فَرصَدوهُ عَلى طَريقِهِ، وقالوا: هذا صَنَّاجةُ العربِ، ما مدحَ أَحداً قَطُّ إِلَّا رَفعَ قَدرَهُ. فَلمَّا وردَ عليهِمْ قالوا لَهُ: أَينَ أَردتَ يا أَبا بَصيرٍ؟

قالَ: أَردتُ صاحبَكُمْ هذا لأُسلِمَ عَلى يَديهِ.

قالوا: إِنَّهُ يَنهاكَ عَنْ خِلالٍ ويُحرِّمُها عَليكَ. وكُلُّها بِكَ رافِقٌ ولَها موافقٌ.

قالَ: وما هُنَّ؟

قالَ أَبو سَفيانَ بنُ حربٍ: الزِّنَى.

قالَ: لَقَدْ تَركني الزِّنَى وما تَركتُهُ، ثُمَّ ماذا؟

قالَ: القِمارُ.

قالَ: لَعلي إِنْ لَقيتُهُ أَصبتُ منهُ عوضاً عَنِ القِمارِ.

قالَ: ثُمَّ ماذا؟

قالَ: الرِّبا.

قالَ: ما دنتُ وما أَدنْتُ قَطُّ. ثُمَّ ماذا؟

قالَ: الخَمرُ.

قالَ: أوه! أَرجعُ إِلى صبابَةٍ بَقيتْ في المهراسِ فَأَشربُها. ثُمَّ ماذا؟

قالَ أَبو سفيانَ: فَهَلْ لكَ في شَيءٍ خيرٌ لكَ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ؟

قالَ: وما هوَ؟

قالَ: نَحنُ وهوَ الآنَ في هُدنَةٍ، فَتأْخذُ مئَةً مِنَ الإبلِ وتَرجعُ إِلى بَلدكَ في سَنَتِكَ هذِهِ حَتَّى تَنظرَ ما يَصيرُ إِليهِ أَمرُنا، فَإِنْ ظَهرْنا عليهِ كُنتَ قَدْ أَخذتَ خَلفاً، وإِنْ ظَهرَ علينا أَتيتَهُ.

قالَ: ما أَكرهُ ذَلكَ.

فَقالَ أَبو سَفيانَ: يا معشرَ قُريش، هذا الأَعشَى. فَواللهِ لَئِنْ أَتَى مُحمَّداً واتَّبعَهُ لَيَضرمَنَّ نيرانَ العربِ عليكُمْ بِشعرِهِ. فَأجمَعوا لَهُ مئةً مِنَ الإبلِ. ففعلوا، فَأَخذَها وانطلقَ إِلى بَلدِهِ، فَلمَّا كانَ بِقاعٍ مَنفوحَةَ رماهُ بَعيرُهُ فَقتلَهُ.

ولَكِنَّ أَغلبَ الظَّنِ أَنَّ الأَعشَى تُوفيَ وهوَ يَهمُّ بالخُروجِ إِلى النَّبيِّ ﷺ بَعدَ مُجادلةِ قُريشٍ لَهُ، وفي طريقِهِ تعثَّرتْ بِهِ ناقَتُهُ ـ وكانَ قَدْ عَميَ في آخرِ عُمرِهِ ـ فَتردى عَنها وماتَ مِنْ أَثرِها، وقالَ تِلكَ القَصيدةَ الطَّويلةَ الَّتِي يَمدحُ بِها رَسولَ اللهِ ﷺ ويُعدِّدُ فيها بعضَ مناقبِهِ وما يَدعو إِليهِ مِنْ فَضائلَ. ويَدلُّ عَلى ذَلكَ تَمنيهِ القُدومَ عَلى النَّبيِّ ﷺ وهوَ لا يَستطيعُ بِسبَبِ ما حدثَ لَهُ، وقَدْ صَرَّحَ بِذلكَ في القَصيدةِ نَفسِها، حيثُ يُوصي بِها سامعيهِ بِالتِزامِ تَعاليمِ الإِسلامِ فَيقولُ:

أَجدكَ لَمْ تَسمَعْ وصاةَ مُحمَّدٍ ... نَبيِّ الإِلهِ حينَ أَوصَى وأَشهدا
إِذا أَنتَ لَمْ تَرحَلْ بِزادٍ مِنَ التُّقَى ... ولاقيتَ بَعدَ الموتِ مَنْ قَدْ تَزوَّدا
نَدمتَ عَلى أَنْ لا تَكونَ كَمثلِهِ ... وأَنَّكَ لَمْ تُرصِدْ لِما كانَ أَرصَدا
وصَلِّ عَلى حينِ العَشيَّاتِ والضُّحَى ... ولا تَحمدِ الشَّيطانَ واللهَ فَاحْمِدا

تُوفيَ «الأَعشَى» سنةَ (629) ميلاديَّةً، ودُفنَ في مكانِ ولادتِهِ في قريَةِ «مَنفوحةَ» بِأَرضِ اليَمامَةِ، قُربَ مدينَةِ الرِّياضِ في المَملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ حالياً.

وقَدْ رَوى أَبو الفرجِ الأَصفهانيُّ عَنْ بَعضِ مُعاصري الشَّاعرِ الأَعشَى أَنَّهُ رأَىَ قَبرَهُ هُناكَ مَثابَةً لِلنَّدامَى والسُّكارى مِنَ الفتيانِ، يَصبُّونَ عليهِ بَقايا الأَقداحِ، لِيَرووا ـ عَلى حَدِّ زَعمِهِمْ ـ عِظامَهُ بِالَّتِي كانَتْ داءَهُ ودواءَهُ طوالَ حياتِهِ.

وقيلَ: إِنَّهُ سُمِّيَ بِالأَعشَى لِضعفِ بَصرِهِ، وإِنَّهُ عميَ في أَواخرِ عُمرِهِ، هذا، ويُلقَّبُ بِالأَعشَى الأَكبرِ؛ لأَنَّ هُناكَ عَديداً مِنَ الشُّعراءِ قَدْ لُقِّبوا بِالأَعشَى أَيضاً، كَالأَعشَى التَّغلبيِّ (ربيعةَ بنِ يَحيَى) المُتوفى سنةَ (710) ميلاديَّةً، وأَعشَى بَني ربيعةَ (عبدِ اللهِ بنِ خارجةَ) المتوفى سنةَ (717) ميلاديَّةً، وأَعشَى باهلةَ (عامرِ بنِ الحرثِ) المتوفى سنةَ (783) ميلاديَّةً، وأَعشَى همدانَ (عبدِ الرَّحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ جَشم الهمدانيِّ) المُتوفى سنةَ (702) ميلاديَّةً. وكُلُّهُمْ كانوا شُعراءَ، وعاشوا بَعدَ عصرِ الأَعشَى الأَكبرِ الَّذِي يُقالُ عَنهُ أَعشَى قَيسٍ.

ولِلأَعشَى ديوانٌ كبيرٌ، يَحوي عدداً كبيراً مِنَ القَصائِدِ، ويَتأَلَّفُ مِنْ نَحوِ (2200) بيتاً، وأَشهرُ قَصائِدِهِ مُعلَّقَتُهُ «اللَّاميَّةُ» وتقعُ في (65) بيتاً، في مَطلعِها:

وَدِّعْ هُريرةَ، إِنَّ الرَّكبَ مُرتحلٌ وهَلْ تُطيقُ وداعاً، أَيُّها الرَّجلُ؟

ولاميَّةٌ أُخرَى تقعُ في (75) بيتاً، في مَطلعِها:

ما بُكاءُ الكبيرِ بِالأَطلالِ وسُؤالي، فَهَلْ تُردُّ سُؤالي؟

ومِنْ شعرِهِ الَّذِي يَفيضُ بِالحكمةِ والاعتبارِ في الحياةِ، قَصيدتُهُ النُّونيَّةُ الَّتِي تَقعُ في (81) بيتاً، يَقولُ فيها:

لَعمُركَ ما طولُ هذا الزَّمنْ ... على المرءِ إلَّا عَناءٌ مُعَنّ

يَظلُّ رَجيماً لريبِ المنون ... ولِلسَّقمِ في أَهلِهِ والحَزَنْ

وما إنْ أَرَى الدَّهرَ في صَرفِهِ ... يُغادِرُ مِنْ شارخٍ أَو يَفَنْ

فَهَلْ يَمنعني ارتيادي البِلا ... دَ مِنْ حَذرِ الموتِ أَنْ يَأتيَنْ

عَليَّ رقيبٌ لَهُ حافِظٌ ... فَقُلْ في امرئٍ غَلِقٍ مُرتَهَنْ

أَزالَ أُذينةَ[1] عَنْ مُلكِهِ ... وأَخرجَ مِنْ حِصنِهِ ذا يَزنْ[2]

---

(1) أذينة: ملك الحيرة وكان مالكاً عظيماً في العراق.

(2) ذو يزن: سيف بن ذي يزن، وكان ملكاً عظيماً في بلاد اليمن.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ لِماذا كانَ يَأتي الشِّعرُ مِنَ الأَعشَى بِعفويَّةٍ صادقةٍ؟

2 ـ ماذا يُميِّزُ الشَّاعرَ الأَعشَى عَنْ غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ؟

3 ـ لِماذا كانَ الأَعشَى لا يَمدحُ أَحداً إِلَّا رَفعَهُ، ولا يَهجو أَحداً إِلَّا وَضعَهُ بينَ النَّاسِ؟

4 ـ أينَ ولدَ الأَعشَى، وما اسمُهُ الحقيقيُّ، ولِماذا لُقِّبَ بِالأَعشَى؟

5 ـ اذكُرْ بِاختصارٍ قصَّةَ الأَعشَى مَعَ «المُحلِّقِ الكِلابيِّ».

6 ـ لِماذا عارضَتْ قُريشٌ خروجَ الأَعشَى إِلى النَّبيِّ ﷺ؟

7 ـ ما أَهمُّ ما يُميِّزُ شعرَ الأَعشَى عَنْ غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ؟

8 ـ عدِّدْ أَهمَّ قَصائِدِ الأَعشَى، واذكُرْ أَولَ بيتٍ مِنْ كُلِّ واحدةٍ منها.

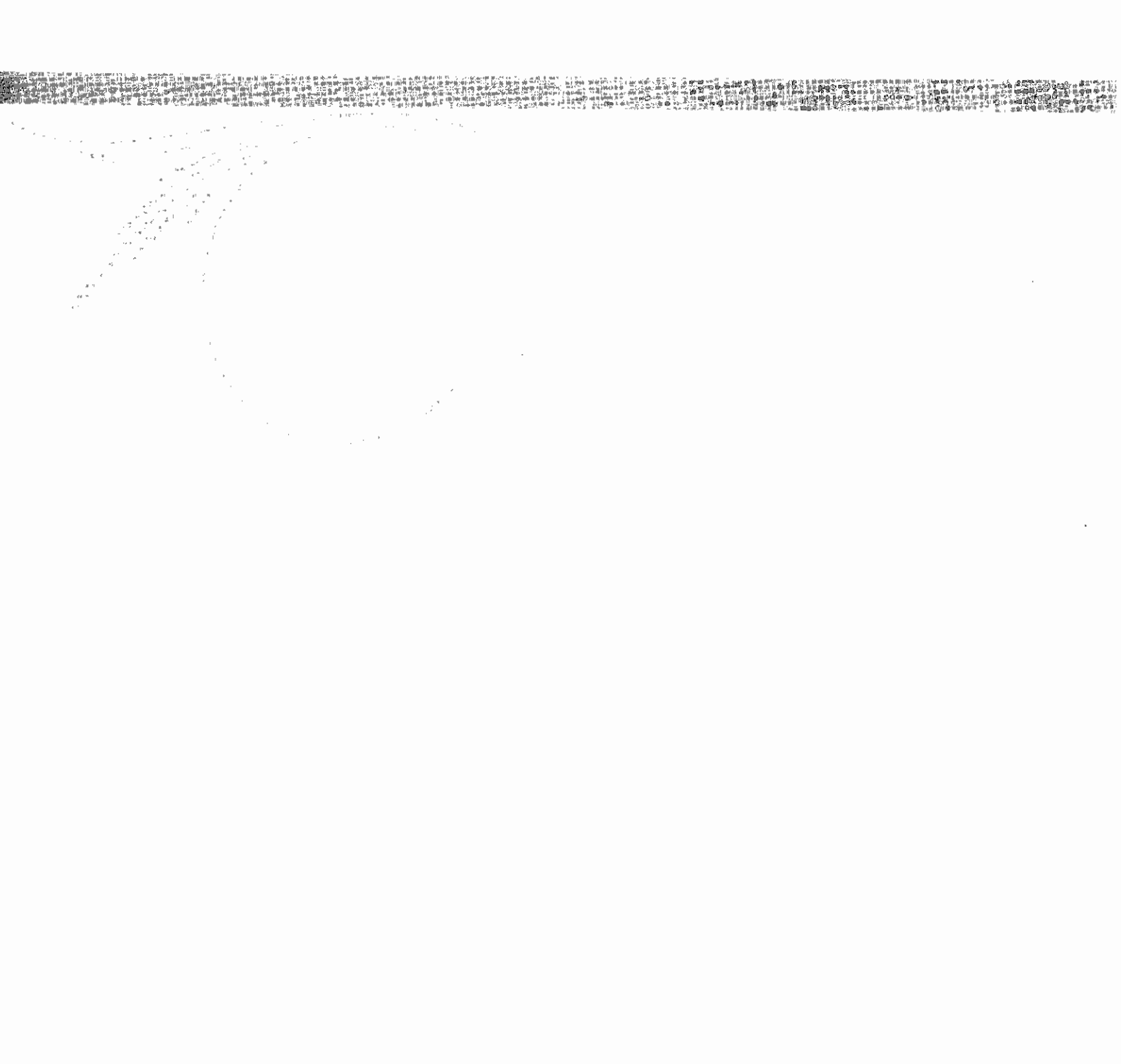

الحُطيئة العبسيُّ
سَاعِرُ الهِجاءِ
(500 ـ 679م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ، عاشَ في الجاهليَّةِ، وأَدركَ الإِسلامَ، وغلبَ عَلى شعرِهِ النَّزعة الجاهليَّة، وهوَ شاعر مَرموقٌ مِنْ شعراءِ الجاهليَّةِ والإِسلامِ المُخضرمينَ، ودرجَ النُّقادُ على خَتمِ مرحلةِ الشُّعراءِ الجاهليينَ بِهِ.

كانتْ لهذا الشَّاعرِ سيرتُهُ الخاصَّةُ، والمُتميِّزةُ عَنْ بَقيَّةِ الشُعراءِ؛ إِذِ اصطبَغَ شعرُهُ بِلونِ حياتِهِ، وكانَ في كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ يَأتي منهُ كردٌّ فعلٍ لِما يَلقاهُ مِنْ شَقاءٍ وتَشرُّدٍ، وظلمٍ مِنْ ذَوي قُرباه وأَرحامِهِ.

لَقدْ أَورثتهُ الحياةُ الجائرةُ، والمُعاملةُ القاسيَةُ، وإِنكارُ نَسبِهِ مِنْ آلهِ، عقداً نَفسيَّةً

واجتماعيَّةً عَشعَشَتْ في نَفسِهِ، فَعاشَ بِسببِ ذَلكَ حياةً مُضطربَةً خاليَةً مِنَ الاتِّزانِ في بَعضِ الأَحيانِ.

فَكانَ يُعوِّضُ عَنْ شعورِهِ بِالنَّقصِ مِنْ جرَّاءِ ضَياعِ نَسبِهِ بِالميلِ نحوَ الانتقامِ مِنَ الآخرينَ وكرهِهِ لَهُمْ، فَكانَ يَهجو النَّاسَ ويَقعُ في أَحلامِهِمْ، ويُحاولُ النَّيلَ مِنْ أَنسابِهِمْ.

فَمُخالفةُ النَّاسِ، كانَ العنوانَ الأَبرزَ في حياتِهِ غيرِ المُتَّزنةِ والمُضطربَةِ اجتماعياً، فحاولَ، أَنْ يَصنعَ لِحياتِهِ الاجتماعيَّةِ كمالاً عَلى طريقتِهِ الخاصَّةِ مِنْ خِلالِ هجاءِ الآخرينَ والتماسِ عُيوبِهِمْ، وإِشغالِ الرَّأيِ العامّ في المُجتمعِ ـ وفقَ معاييرِ عصرنا هذا ـ وصَرفِهِ عَمَّا كانَ يَشعرُ بِهِ في قَرارةِ نفسِهِ مِنْ نَقصٍ في شَخصيَّتِهِ، ومِنْ غُموضٍ في نَسبِهِ، ومِنِ ازدراءٍ لَهُ مِنْ قِبلِ الآخرينَ. ولَكنَّهُ أَخفقَ في تَحقيقِ ذَلكَ؛ لأَنَّهُ حاولَ أَنْ يَدفعَ السُّوءَ عَنْ نَفسِهِ بِسوءٍ مثلِهِ.

إِلى جانبِ ذَلكَ، حاولَ مَدحَ بَعضِ الرِّجالِ، وبَعضَ الأَقوامِ مُلتَمساً لَهُمْ في المَعالي أَحوالاً وصِفاتٍ، هُمْ ليسوا أَهلاً لَها ولا لِلمديحِ، وذَلكَ مُقابلَ شَيءٍ مِنَ المالِ يَدفعونَهُ إِليهِ.

لَمْ يُحسنْ هذا الشَّاعِرُ اسْتقطابَ الفُضلاءِ والنُّبلاءِ والأَشرافِ مِنَ النَّاسِ، وإِنَّما راحَ يُثيرُ غَضَبَهُمْ ونَقمتَهُمْ، ويُزيدُهُمْ نُفوراً مِنهُ؛ مِمَّا جَعلَهُ مُهاناً في مُعاملتِهِمْ لَهُ، وبِالمُقابلِ راحَ يَتقرَّبُ مِنْ سَفلةِ النَّاسِ، ويَمدحُهُمْ لِيُغيظَ أَعداءَهُ وأَعداءَهُمْ معاً.

وهوَ وإِنْ جارَتْ عليهِ الحياةُ بِناسِها وخُنَّاسِها ـ كما قيلَ ـ فَإِنَّهُ يَتحمَّلُ القِسطَ الأَكبرَ مِنْ

مَسؤوليَّةِ ما عاناهُ، وما لاقاهُ طوالَ حياتِهِ؛ إِذْ كانَ عليهِ أَنْ يُحسنَ استغلالَ مواهبِهِ وشعرِهِ فيما يُحسنُ أَو يُجملُ بِهِ أَمامَ النَّاسِ ولا سِيَّما أَنَّ السُّبلَ كانَتْ مَفتوحةً أَمامَهُ لِالتماسِ مَعالي الأُمورِ.

ومِمَّا زادَ حياتَهُ شَقاءً وتَشرُّداً، ومِمَّا فاقمَ ازدراءَ الآخرينَ لَهُ وبُعداً عنهُ، أَنَّهُ كانَ لا يَستَقرُّ عَلى رأيٍ، فَما كانَ يَمدحُهُ اليَومَ، يَهجوهُ غداً، وما يقدح به اليومَ يثني عليه غَداً.

ولِهذا، لَقَّبوهُ بِالحُطَيئَةِ مِنْ بابِ التَّهكُّمِ والتَّحقيرِ والتَّقليلِ مِنَ الشَّأنِ والحطِّ مِنَ القدرِ والمكانَةِ؛ لأَنَّهُ كانَ يَحطُّ مِنْ قَدرِهِ، ومِنْ قَدرِ النَّاسِ في شعرِهِ.

ولَكِنْ ـ والحقُّ يُقالُ ـ لَمْ يَخلُ شعرُهُ مِنَ النَّواحي الفَنيَّةِ مِنَ الإِبداعِ والابتكارِ، ومِنَ التَّفوُّقِ في بَعضِ أَغراضِ الشِّعْرِ عَلى مُعاصريهِ مِنَ الشُّعراءِ، كما لَمْ يَخلُ شعرُهُ مِنَ الظَّرافَةِ والطَّرافَةِ والنُّكتةِ.

فَتعالَوا معاً لِنتعرَّفَ عَلى هذا الشَّاعرِ في هذِهِ العُجالةِ السَّريعةِ.

❋ ❋ ❋

يُنسَبُ الحُطيئَةُ إِلى بَني عَبسٍ مِنْ مُضَرٍ، وقَدْ كانَ مُضطرِبَ النَّسبِ، غيرَ صريحِ القرابَةِ، قد أَنكرَهُ آلُ أَبيهِ.

واسمُهُ الحَقيقيُّ «جَرولُ بنُ أَوسٍ»، ولُقِّبَ بِالحُطيئَةِ لِما عُرفَ بِهِ مِنْ قِصرِ قامتِهِ، ومِنِ ازدراءِ أَقربائِهِ لَهُ.

ولِدَ «الحُطيئَةُ» حوالَي سَنةَ (500) ميلاديَّة، مِنْ أُمٍّ اسمُها «الضَّرَّاءُ» ومِنْ أَبٍ اسمُهُ «أَوسٌ» وماتَ أَبوهُ وهوَ لَمْ يَزَلْ صَغيراً، فَلَمْ يَعترِفْ بِنَسبِهِ إِخوَتُهُ مِنْ أَبيهِ وأَنكروهُ أَمامَ النَّاسِ، فَعاشَ مُشرَّداً.

اعتَنَتْ بِهِ قليلاً في صِغرِهِ امرأةُ أَبيهِ مِنْ بَني ذُهل، وحاولَ الالتحاقَ بِأَهلِها وذَويها، ولَكنَّهُ لَمْ يَلقَ عندَهُمْ خيراً، فَانْصرَفَ عنهُمْ، وصارَ يَجوبُ القَبائِلَ، ويَتَنَقَّلُ في المضاربِ مِنْ قَومٍ إِلى قَومٍ، ومِنْ حَيٍّ إِلى حَيٍّ، عَلَّهُ يَجدُ بينَهُمْ ملاذاً، أَو يَجدُ مِنهُمْ مَنْ يَنصرُهُ عَلى إِخوتِهِ حَتَّى يُلحقوهُ بِنَسبِهِمْ، ويَتمتَّعَ بِكاملِ حُقوقِهِ المَدنيَّةِ والاجتماعيَّةِ بينَ قومِهِ داخلَ قبيلتِهِ.

لكنَّهُ لَمْ يَجدْ لَهُ بينَ العربِ مَلاذاً أَو نَصيراً أَو مُعيناً عَلى نوائِبِ الدَّهرِ، وجورِ الأَيَّامِ، فاضطَرَّ لِلعملِ بِرعي الإِبلِ والأَغنامِ في بِدايَةِ حياتِهِ، مُقابِلَ أَجرٍ يُقيمُ بِهِ أَودَ جوعِهِ، ويَسترُ بِهِ عورةَ نفسِهِ وعَوَزِهِ، مُتنقِّلاً بينَ القَبائِلِ في البَوادي والجِبالِ، فَأَكسَبَهُ حِلُّهُ وترحالُهُ بينَ القَبائِلِ وأَحياءِ العربِ، خبرَةً وثَقافةً واسِعةً، فَحفظَ الكثيرَ مِنْ أَشعارِ العربِ، وتَأَثَّرَ بِحكيمِ بَني تَميمٍ وشاعرِهِمْ «أَوسِ بنِ حجرٍ التَّميميِّ»، ومَرَّ كثيراً بِمجالسِ الشُّعراءِ الَّذِينَ عاصرَهُمْ، حَتَّى إِذا ما تَمرَّسَ بِالشِّعْرِ، وصارَ لَهُ صولةٌ وجولةٌ في دولَةِ القَريضِ، راحَ يَبحثُ عَنْ مَنفَعتِهِ ورِزقِهِ مِنْ خلالِ المَديحِ والهِجاءِ.

كانَ «الحُطيئَةُ» يَعرضُ بِضاعتَهُ الشِّعريَّةَ عَلى كُلِّ طالبِ شِراءٍ، وعَلى كُلِّ راغبٍ بِالمَدحِ، فَيمدحُ مَنْ أَعطاهُ، ويَهجو مَنْ رَدَّهُ أَو مَنعَ العطاءَ عَنهُ، إِلى أَنْ صار النَّاسُ يَخشونَ لِسانَهُ، ويَحسبونَ لَهُ أَلفَ حِسابٍ.

فَنفرَ عنهُ ذَوي الفَضلِ والمُروءَةِ، وأَقبلَ عليهِ سَفلةُ النَّاسِ، يَبتاعونَ مِنهُ المديحَ بِثمنٍ يَكثرُ في بَعضِ الأَحيانِ، أَو يَقلُّ في أَحيانٍ أُخرَى، وفي أَيَّامِ العُسرةِ كانَ يَرضَى بِالقَليلِ.

كما استطاعَ في أَحايينَ أُخرَى، أَنْ يَحتلَّ نُفوسَ بَعضِ الفُضلاءِ والأَسيادِ، فَيُكرمونَهُ إِكراماً عَظيماً، فَيسيلُ لِسانُهُ بِمدحِهِمْ. والغريبُ في الأَمرِ أَنَّهُ عَلى الرَّغمِ مِنِ ازدراءِ النَّاسِ لَهُ، ونُفورِهِمْ عَنهُ كانَ مَديحُهُ أَو هِجاؤُهُ يَلقَى صَدىً في النُّفوسِ. فَكَمْ رَفَعَ مِنْ شَأنِ أُناسٍ مَدحَهُمْ، وكَمْ حَطَّ مِنْ قَدرِ ومَنزلَةِ أُناسٍ هَجاهُمْ، ولِهذا كانَ لِشعرِهِ سُلطانٌ في النُّفوسِ والعُقولِ.

❋ ❋ ❋

كانَ شعرُ «الحُطيئةِ» جَزلاً قَويّاً دقيقاً، وكانَ يَفي بِالغرضِ، ويُؤدي المَطلوبَ، بِأُسلوبٍ عَجيبٍ مُلفتٍ لِلنَّظرِ، ويَقعُ في صَميمِ الفِكرِ لِسامعِهِ أَو لِقارئِهِ عَلى السَّواءِ، كُلُّ ذَلِكَ بِلغَةٍ مُؤثِّرةٍ، وتصويرٍ مُبدعٍ يَأسرُ الخيالَ.

كَما أَنَّهُ لَمْ يَستعملْ في هجائِهِ الأَلفاظَ الفاحشةَ، ولَمْ يَقعْ في الأَعراضِ، وإِنَّما كانَ يَهجو في النَّاسِ المعاني والصِّفاتِ الخُلقيَّةَ كالبُخلِ والحقدِ والجبنِ، وقِلَّةِ المروءَةِ، والحرصِ عَلى المالِ.

كما كانَ شعرُهُ لا يَخلو مِنَ الطَّرافةِ ومُداعبةِ العقولِ والنُّفوسِ، فَكانَ يَستَحْسِنهُ سامعُهُ، ويَتناقلُهُ النَّاسُ عَلى سَبيلِ الدِّعةِ والمُظارفَةِ.

ويُروَى مِنْ هذا القبيلِ أَنَّ «الزِّبرقانَ» كانَ رَجلاً مُوسراً، صادفَ يَوماً «الحُطيئَةَ» يَطلبُ

الرِّزقَ بِذَويهِ، فَتعهَّدَ لَهُمْ بِهِ عَلى أَنْ يَمدحَهُ «الحُطيئَةُ»، فَأَضافَهُم «الزَّبرقانُ» إلى بيتِهِ، فَأَحسنَتْ في البِدايَةِ زوجَةُ «الزَّبرقانِ» استقبالَهُمْ، ولَكِنَّها صَرَفَتْهُمْ، فَأَتَوا بَني «أُنفِ النَّاقَةِ»، وكانَ بينَ بَني «أُنفِ النَّاقَةِ» وبينَ «الزَّبرقانِ» خِلافٌ وعداوةٌ، فَأَحسنَ بَنو «أُنفِ النَّاقَةِ» إِليهِمْ، وأَكرموا «الحُطيئَةَ» أَيَّما إِكرامٍ فَمدحَهُمُ «الحُطيئَةُ»، وهَجا «الزَّبرقانَ»، وكانَ مِمَّا قالَهُ في بَني «أُنفِ النَّاقَةِ»:

قومٌ هُمُ الأُنفُ والأَذنابُ غيرُهُمُ ومَنْ يُسَوِّي بِأُنفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَ

فَاستطاعَ «الحُطيئَةُ» بِهذا البيتِ أَنْ يَرفعَ عارَ اسمِ بَني «أُنفِ النَّاقَةِ»، بَلْ بعدَ مَدحِهِ لَهُمْ صارَ ذَلكَ اللَّقبُ فَخراً لَهُمْ بينَ النَّاسِ.

وقالَ في هَجاءِ «الزَّبرقانِ»:

ما كانَ ذَنبُ بَغيضٍ أَنْ رأَى رَجلاً ذا فاقَةٍ عاشَ في مُستوعرٍ شاسِ
جاراً لِقومٍ أَطالوا هُونَ مَنْزِلِهِ وغادروهُ مُقيماً بينَ أَرْماسِ
مَلُّوا قِراهُ وهَرَّتْهُ كِلابُهُمُ وجَرَّحوهُ بِأَنيابٍ وأَضْراسِ

ومِمَّا هَجا بِهِ «الزّبرقانَ» أَيضاً مِنْ هِجاءٍ جارحٍ اسْتَحقَّ عليهِ الحبسَ مِنْ قِبلِ الخليفةِ «عُمرَ بنِ الخَطَّابِ» رضي الله عنه قَولُهُ:

لَمَّا بَدا لي فيكُمْ عيبُ أَنفُسِكُمْ ولَمْ يَكُنْ لِجراحي مِنكُمْ آسي
أَزمَعتُ يَأساً مُبيناً مِنْ نَوالِكُمُ ولَنْ تَرَى طارداً لِلحُرِّ كَالياسِ
دَعِ المَكارمَ لا تَرحَلْ لِبُغيَتِها واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنتَ الطَّاعمُ الكَاسي

فَهوَ يُخاطبُ «الزَّبرقانَ» في هذِهِ الأَبياتِ قائِلاً لَهُ: اعْدِلْ عَنِ المَكارِمِ، ولا تَطلُبْها لأَنَّها ليسَتْ مِنْ شَأنِكَ، واكتَفِ مِنَ الأَعمالِ بِأَنْ تكونَ آكلاً مُكتسياً.

فَشكاهُ «الزَّبرقانُ» إِلى الخَليفةِ «عُمرَ بنِ الخَطَّابِ» ﷺ، فَحبسَهُ الخليفَةُ عَلى هذا الهِجاءِ المُقذعِ، ولَكنَّهُ وهوَ في حبسِهِ، أَنشدَ لِلخليفَةِ قائِلاً:

مـاذا تَـقـولُ لأَفـراخٍ بِـذي مَـرَخٍ زُغبُ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجرُ

أَلقَيتَ كاسِبَهُمْ في قَعرِ مُظلمَةٍ فَاغفِرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عُمَرُ

فَأَطلقَ «عُمرُ» ﷺ سَراحَهُ بعدَ سَماعِهِ هذِهِ الأَبيات رَحمةً بِأَطفالِهِ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعيلٌ غيرُهُ.

وكانَ مِمَّا هَجا بِهِ زَوجَ أُمِّهِ أَيضاً:

لَحاكَ اللهُ ثُمَّ لَحاكَ حَقّاً أَباً ولَحاكَ مِنْ عَمٍّ وخالِ

فَنِعمَ الشَّيخُ أَنتَ عَلى المَخازي وبِئسَ الشَّيخُ أَنتَ لَدى المَعالي

جَمعتَ اللُّؤمَ لا حيَّاكَ رَبِّي وأَبوابَ السَّفاهةِ والضَّلالِ

❋ ❋ ❋

مدحَ «الحُطيئَةُ» بَعضَ النَّاسِ والأَقوامِ فَأَجادَ في مَدحِهِ، فَتَمثَّلَتْ عبقريَّتُهُ الشِّعريَّةُ في مَزجِهِ لِلعاطفةِ الرَّقيقَةِ المُؤثِّرَةِ في مَديحِهِ، حيثُ يَجعلُ المَمدوحَ يَرتَفعُ قَدرُهُ بينَ أَقرانِهِ، وفي عينِ كُلِّ مَنْ يَسمعُ مَدحَهُ. وكَذلِكَ كانَ يَستَدِرُّ عطفَ وإِشفاقَ المَمدوحِ عَليهِ، فَيُبالغُ في إِكرامِهِ، وفي عَطائِهِ.

فَمثلاً، قالَ يَوماً مادحاً «آلَ شَمَّاس» عندما أَضافوهُ:

أُولئِكَ قَومٌ إِنْ بَنوا أَحسَنوا البُنَى وإِنْ عاهدوا أَوفَوا وإِنْ عقدوا شَدُّوا
وإِنْ كانَتِ النُّعمَى عَليهِمْ جَزوا بِها وإِنْ أَنعموا لا كَدَّروها ولا كَدُّوا

فَأَغدقَ عليهِ بَنو شَمَّاس بعدَ سَماعِهِمْ هذا المَديحِ الَّذِي أُطرِبوا بِهِ.

وقالَ يَمدحُ «عمرو بنَ عامرٍ» وكانَ رَجلاً جَوَّاداً وكريماً:

يَعيشُ النَّدى ما عاشَ عَمرو بنُ عامرٍ ووَلَّى النَّدى إِنْ نَفسُ عمرو وَلَّتْ
حليفُ النَّدَى لَمَّا تَولَّى خَلا النَّدى فَماتَتْ عَطايا المُكثرينَ وقَلَّتْ
تَوارَى النَّدى لَمَّا تَوارَتْ عِظامُهُ فَأَعظِمْ بِها في المُعتقينَ وجَلَّتْ
فَلولا بَقايا مِنْ بَنيهِ ورَهطِهِ لَهانَتْ وجوهٌ مِنْ ثَقيفٍ وذَلَّتْ

وقالَ في مدحِ بَني ذُهل قَوم امرأَةِ أَبيهِ، عندما أَوَى إِليهِمْ، وكانَتْ مَساكنُهُمْ في أَرضِ اليَمامةِ:

إِنَّ اليَمامةَ خيرُ ساكنِها أَهلُ القَريَةِ مِنْ بَني ذُهلِ
الضَّامنونَ لِمالِ جارهُمُ حَتَّى يَتمَّ نواهضُ البَقلِ
قَومٌ إِذا انتَسَبوا فَفرعُهُمْ فَرعي وأُثبتُ أَصلَهُمْ أَصلي

وقالَ يَمدحُ بَني عوفٍ وهُمْ قَومُ عمرو بنِ عامرٍ، وقَدْ حاولَ إِلحاقَ نَسبِهِ بِهِمْ، وهُمْ أَيضاً مِنْ قبيلةِ بَني ذُهلٍ:

سيري أُمامُ فَإِنَّ المالَ يَجمَعُهُ سَيبُ الإِلهِ ولإِقبالي وإِدباري
إِلى معاشر مِنهُمْ - يا أُمامُ - أَبي مِنْ آلِ عَوفٍ بُدوءٌ غيرُ أَشرارِ
نَمشي إِلى ضَوءِ أَحسابٍ أَضَأْنَ لَنا ما ضَوأَتْ ليلَةُ القمراءِ لِلسَّاري

❋ ❋ ❋

أَدركَ «الحُطيئَةُ» الإِسلامَ وأَسلمَ، ولَكِنْ لَمْ يَحسُنْ إِسلامُهُ، وقيلَ: إِنَّهُ أَسلمَ في أَواخرِ حياةِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، وقيلَ: إِنَّهُ أَسلمَ بعدَ وَفاتِهِ، وقيلَ عنهُ: إِنَّهُ لَمْ يَتجاوزْ إِسلامُهُ قَلبَهُ. وبَقيَ رَجلاً فاسدَ الدِّينِ، لا يَكفُّ عَنْ هجاءِ النَّاسِ، وكانَ يُدارَى خَوفاً مِنْ لِسانِهِ، مَرَّةً بِالمالِ، ومَرَّةً بِالسِّجنِ.

وممَّا يُروَى في هذا الصَّددِ أَنَّ الخليفةَ «عُمرَ بنَ الخطَّابِ» رضي الله عنه اشترَى منهُ أَعراضَ المُسلمينَ بِثلاثَةِ آلافِ درهمٍ، وقالَ لَهُ: «إِياكَ وهجاءَ النَّاسِ». فَأَجابَهُ الحُطيئَةُ: يَموتُ عيالي جوعاً. هذا مَكسبي ومنهُ معاشي.

ولَمَّا أَدركتْهُ الوفاةُ، أَوصَى أنْ يُحملَ عَلى أَتانٍ حَتَّى يَموتَ، قائِلاً في ذَلكَ: «إِنَّ الكريمَ لا يَموتُ على فِراشِهِ». فَحُملَ عَلى أَتانٍ تَروحُ وتَجيءُ بِهِ، وهوَ يَقولُ:

لا أَحدٌ ألأَمُ مِنْ حُطيَّه هجا بَنيهِ وهَجا المَرَيَّه
مِنْ لُؤمِهِ ماتَ عَلى فُرَيَّه

وكانَتْ وفاتُهُ سنةَ (679) ميلاديَّةً، وحفظَ لَنا التَّاريخُ مِنْ شعرِهِ ديواناً كبيراً فيهِ ما يُقاربُ (1050) بيتاً.

ولا يَفوتُنا في هذا المقامِ أَنْ نذكرَ أَنْ شعرَ «الحُطيئَةِ» لَمْ يَخلُ مِنَ الحكمةِ والاعتبارِ؛ لأَنَّهُ مِنَ الشُّعراءِ المُخضرمينَ الَّذِينَ عاشوا في الجاهليَّةِ والإِسلامِ وتَمتَّعوا بِثقافةٍ واسعةٍ وغنيَّةٍ بِالمعارفِ والتَّجاربِ والخُبراتِ، ولنَستمعْ إِليهِ وهوَ يَشدو بِما أَدركَهُ مِنْ مَعاني السَّعادةِ الحقيقيَّةِ، فَيقولُ:

ولستُ أَرَى السَّعادةَ جَمعَ مالٍ ... ولَكنَّ التَّقيَّ هُوَ السَّعيدُ
وتَقوَى اللهِ خيرُ الزَّادِ ذُخراً ... وعندَ اللهِ لِلأَتقَى مَزيدُ
وما لا بُدَّ أَنْ يَأتي قَريبٌ ... ولَكنَّ الَّذِي يَمضي بَعيدُ

ونُلاحظُ أَنَّ المُؤرِّخينَ قَدْ وَصفوا «الحُطيئَةَ» بِصفاتٍ قبيحةٍ ذَميمةٍ، ونَسبوا إِليهِ الكثيرَ مِنَ القِصصِ والأَخبارِ الَّتِي تَجعلُهُ والأَخلاقَ القَويمةَ عَلى طَرَفي نَقيضٍ، فَليسَ فيهِ إِلَّا ما يُعابُ عليهِ مِنْ صفاتٍ وأَخلاقٍ وسُلوكٍ.

وصَفَهُ «الأَصفهانيُّ» في «الأغاني» فقالَ: «كانَ الحُطيئَةُ مُتسولاً مُلحفاً، دَنيءَ النَّفسِ، كثيرَ الشَّرِّ، قليلَ الخيرِ، بخيلاً، قبيحَ المنظرِ، رثَّ الهيئَةِ، مغموزَ النَّسبِ، فاسدَ الدِّين، وما تشاء أَن تقولَ في شعرِ شاعرٍ مِنْ عيبٍ إِلَّا وجدتَهُ».

بَلْ وردَ عنهُ أَنَّهُ بلغَ مِنَ الدَّناءَةِ والقُبحِ، أَنَّهُ التمسَ يوماً إِنساناً ليهجوَهُ فَلَمْ يَجدْ، فَشرعَ يَهجو نفسَهُ. وكانَ كثيراً ما يَفعلُ ذَلكَ، ومِمَّا قالَهُ في هجاءِ نفسِهِ:

أَبَتْ شَفتايَ اليومَ إِلَّا تَكلُّماً ... بِشَرٍّ فَما أَدري لِمَنْ أَنا قَائِلُهُ
أَرَى لي وَجهاً شَوَّهَ اللهُ خَلقَهُ ... فَقُبِّحَ مِنْ وَجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهُ

ومِنَ الأَخبارِ الطَّريفةِ الَّتِي ذكرها «الأَصفهانيُّ» عنهُ، والَّتِي تَدلُّ عَلى رَهبَةِ النَّاسِ منْ لِسانِهِ وهجائِهِ:

ذاتَ يومٍ قدمَ المدينةَ المُنوَّرةَ، وقَدْ أَرصَدتْ لَهُ قُريشٌ ـ يَعني في مكَّةَ ـ العَطايا، والنَّاسُ في سَنةٍ مُجدبَةٍ، وسَخطةٍ مِنْ خليفةٍ، فَمشَى أَشرافُ أَهلِ المدينةِ بَعضُهُمْ إِلى بَعضٍ، فَقالوا: قَدْ قدمَ علينا هذا الرَّجلُ، وهوَ شاعرٌ، والشَّاعِرُ يَظنُّ فَيُحَقِّقُ، وهوَ يَأتي الرَّجلَ مِنْ أَشرافِكُمْ يَسأَلُهُ فَإِنْ أَعطاهُ مَدحَهُ، وإِنْ حرمَهُ هَجاهُ. فَأَجمعَ أَمرُهُمْ أَنْ يَجعلوا لَهُ شَيئاً يَجمعونَهُ بينَهُمْ، فَكانَ أَهلُ البيتِ مِنْ قُريشٍ والأَنصارِ يَجمعونَ لَهُ العشرةَ والعشرينَ والثَّلاثينَ ديناراً، حَتَّى جَمعوا لَهُ أَربعمئة دينارٍ، وظَنوا أَنَّهُمْ قَدْ أَغنَوهُ، فَأَتوهُ فقالوا لَهُ:

إِنَّ هذِهِ صِلَةَ آلِ فُلانٍ، وهذِهِ صِلَةُ آلِ فُلانٍ، وهذِهِ، وهذِهِ. . . ، فَأَخذَها، وظَنوا أَنَّهمْ قَدْ كَفوهُ عَنِ المَسألةِ، فَإِذا هوَ يوم الجُمعةِ قَدِ استَقبلَ الإِمامَ ماثِلاً يُنادي: «مَنْ يَحملُني عَلى بَعيرينِ وَقَّاهُ اللهُ كبَّةَ جهنَّم».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا أَورَثَتِ الحُطيئَةَ الحياةُ الجائرةُ الَّتِي عاشَها؟

2 ـ لِماذا يَتحمَّلُ الحُطيئَةُ القِسطَ الأَكبرَ مِنْ مَسؤوليَّةِ ما عاناهُ؟

3 ـ إِلى مَنْ يُنسبُ الحُطيئَةُ، ولماذا لُقِّبَ بِهَذَا الاسْمِ؟

4 ـ بِمَنْ تَأثرَّ الحُطيئَةُ، وماذا حفظَ؟

5 ـ لِماذا كانَ الناسُ يَستحسنونَ شعرَ الحُطيئَةِ؟

6 ـ لِماذا أَطلقَ الخليفةُ عُمرُ سراحَ الحُطيئةِ؟

7 ـ كيفَ تَجلَّتْ عبقريَّةُ الحُطيئَةِ الشِّعريَّة؟

8 ـ لِماذا أمرَ الحُطيئَةُ عندَ موتِهِ أَنْ يُحملَ عَلى أَتانٍ؟

المحتوى

امرُؤُ القيسِ الشَّاعِرُ الطَّريدُ 5

طَرفَةُ بْنُ العَبدِ الشَّاعِرُ القَتيلُ 15

عُبيدُ بْنُ الأَبرصِ الشَّاعرُ الواعِظُ 27

زُهيرُ بْنُ أَبي سُلْمى شاعِرُ الإِصلاحِ 37

عنترةُ بن شداد شاعرُ الحب والبطولة 49

عَمْرُو بنُ كلثومٍ الشَّاعرُ الثَّائرُ 61

الحارثُ بنُ حلزةَ شاعِرُ الفَخرِ 75

النَّابغةُ الذُّبيانيُّ شاعرُ الملوكِ 87

الأعشَى الأكبرُ شاعرُ الوصْفِ والمَدْحِ 101

الحُطيئة العبسيُّ شاعِرُ الهِجاءِ 115

المحتوى 127